د. محمد البشير شنيتي

الاحتلال الروماني لبلاد المغرب

(سياسة الرومنة • 146 ق.م / 40 م)



محمد البشير الشنيتي

سياسة الرومنة في بلاد المغرب
من سقوط الدولة القرطاجية إلى سقوط موريطانيا
(146 ق . م – 40 م)



الطبعة الثانية

المؤسسة الوطنية للكتاب
3 ، شارع زيروت يوسف
الجزائر

رقم النشر 84/1829
© المؤسسة الوطنية للكتاب
الجزائر — 1985

المقدمة

1 ـ الاطار الجغرافي للبحث .
2 ـ الاطار التاريخي .

1 ـ الاطار الجغرافي للبحث :

يغطي هذا البحث مجالا جغرافيا ، قد لا يتفق مع التحديد التقليدي لاصطلاح « المغرب »[1] . وذلك تبعا لمجريات الأحداث التاريخية ، التي اتخذت توزيعا جغرافيا لا ينطبق تمام الانطباق على بلاد المغرب الحالية.

وبالتحديد ، فالبحث يتناول أحداث المنطقة المغربية الممتدة على الشاطيء الجنوبي لحوض البحر الأبيض المتوسط الغربي تقريبا . وهي المنطقة التي تقابل أروبا الغربية ، بما فيها ايطاليا ، على امتداد ينوف على الألفين كيلومتر . حيث أن خط طول 10 غرب غرينويتش والمار غربي ايرلنده والبرتغال ، ينطبق على الشواطيء الاطلسية للمغرب الأقصى حاليا . كما أن خط طول 11 شرق غرينويتش ، والمار بمدينة أوسلو وهامبورغ وفلورنسا ، ينطبق على مدينة تونس[2] . لكن هذه المدينة المغربية لا تعتبر النهاية الشرقية القصوى لمنطقة البحث . اذ أن السواحل الشرقية لبلاد تونس تندرج في صلب الموضوع .

أما من حيث خطوط العرض الجغرافية ، يلاحظ أن المجال الجغرافي لهذا البحث محصور بين خطي عرض 29 و 37 شمال خط الاستواء . مع التذكير بأن الصحراء لا تدخل في هذا الأعتبار ، نظرا لدورها الثانوي بالنسبة للأحداث الرئيسية التي يتعرض لها هذا البحث .

ويؤهل هذا الموقع بلاد المغرب عموما لأن تكون عرضة لتأثيرات أروبية وشرقية واضحة ، الأمر الذي يجعلها تتأثر بالأحداث المتوسطية الكبرى تأثرا واضحا ، وتنعكس عليها نتائج تلك الأحداث انعكاسا جليا .

أما التضاريس التي تؤثر على حياة الانسان تأثيرا ملحوظا ، فتتلخص في أن نسبة كبيرة من سطح المنطقة تتألف من مرتفعات جبلية ، تنتشر بينها سهول ضيقة نسبيا . ويأخذ شكل الجبال فيها صفة السلاسل شبه المتوازية في اتجاه عرضي من الشرق إلى الغرب ، تبعا للاتجاه العام الذي تأخذه الجبال الألبية الاروبية التي تنتسب اليها هذه الجبال ، من حيث التكوين الجيولوجي .

وقد حدا هذا التشكل ببعض الباحثين في جغرافية المغرب التاريخية ، وفي مقدمتهم غوتيي (Goutier E.F.) إلى صياغة نظريات حول ما أسموه « باللعنة الجغرافية » التي أصابت البلاد (في نظرهم) ، فجعلتها قاصرة عن تحقيق الوحدة السياسية عبر تاريخها الطويل . وفي هذا يقول غوتيي ما ملخصه ، بأن للبنية الجغرافية أثرها الفعال في تاريخ المغرب . وهي التي فرضت عليه حالة دائمة من العجز السياسي ، ويضيف مؤكدا « بأن المغرب لم يتمكن من الوصول الى الوحدة السياسية »[3] .

ويفسر جوليان (Julien CH.A.) هذا العائق الجغرافي بأنه يتمثل في « التجزؤ الجغرافي ، وصعوبة المواصلات ، وانعدام الأودية الواصلة بعضها إلى بعض ، وعدم صلاحية الأنهار ، وعداء البحر ، وقلة الأراضي النافعة » .

كما أنه لخص مسؤولية هذا الاخفاق السياسي المزعوم فيما أسماه « بالصراع الدائم بين البدو والحضر الذي لم ينته بفوز واحد على الآخر » . ويضيف « بأن هذه الثنائية التي تعذر القضاء عليها » . هي التي تعلل في الظاهر ، كيف أن بلاد البربر كان لها دائما « أسياد أجانب »[4] .

والحقيقة أن هذا الرأي لا يحتاج إقامة الدليل على أنه يرمي إلى إقناع القارىء بفكرة القصور الذاتي للانسان المغربي ، من أجل تبرير تبعيته السياسية ، التي أوجزها غوتيي في عبارة « الظل الأبدي »[5] .

وتبعاً للأهمية الفلاحية ، تقسم السهول إلى ثلاثة أصناف رئيسية ينتشر الصنف الأول منها في عدة مناطق ساحلية متاخمة للبحر . ويتصف هذا النوع بالخصوبة وقلة الأمتداد بسبب الكتل الجبلية الساحلية التي تقطع هذه السهول . ويحتوي القسم الثاني على السهول الداخلية التي تتوسط الجبال ، وهي أقل خصوبة من سابقتها ، لكنها تماثلها في عدم الأمتداد الكبير أحيانا . أما الصنف الثالث من السهول ، فهو عبارة عن هضاب أو نجود مرتفعة نسبيا ، يطلق عليها تعبير « السهول العليا » ، وتمتد على مساحات شاسعة في المنطقة المحصورة بين سلسلتي جبال الأطلس الصحراوي والتلي في الجزائر . وهذه السهول سهبية فقيرة زراعيا ، أغلبها مراعي مشاعة بين الرعاة ، يجوبونها بقطعانهم بحثا عن الكلأ والماء .

من الطبيعي أن ينتج عن هذا التنوع في السطح تنوع في أنماط المعيشة لدى السكان ، حيث تلاحظ أزدواجية قديمة في المجتمع المغربي بين الفلاحين المستقرين والرعاة المتنقلين ، كما يلاحظ أن هؤلاء كثيرا ما كانوا يسمحون لأنفسهم بتجاوز المناطق الرعوية الدائمة إلى المناطق الزراعية ، الأمر الذي كان يثير حساسية لدى الفلاحين ، فنما بين الطرفين نوع من السلوك السلبي في العلاقات أدى أحيانا كثيرة إلى صراعات بين القبائل الرحل والمستقرين ، من أصحاب الأراضي التي كانت تداهمها تلك القبائل بمواشيها .

غير أن هذا النوع من الصراع بين نمطين من الحياة الاجتماعية أمر طبيعي ، حدث ولا يزال يحدث في كثير من مناطق العالم ، وليس من الأراء الصائبة أن يعتبر عائقا رئيسيا حال دون قيام الوئام الاجتماعي الذي تقوم عليه الوحدة السياسية حسب ما ذهب اليه غوتيي وجوليان .

وبخصوص المناخ يمكن القول بأنه إذا كانت التضاريس تنتمي إلى مجموعة التضاريس المتوسطية الغربية ، فإن مناخ بلاد المغرب عموما يمتاز بالأزدواجية التي تتجاذب قوة التأثير في المنطقة حسب الفصول وهذه الأزدواجية تتمثل في المناخ المتوسطي الرطب ، والمناخ الصحراوي

ومعنى هذا ان منطقة المغرب عبارة عن جبهة لتلاقي المناخين الجاف . والمتباينين . فالمناخ المتوسطي المتصف بالرطوبة والاعتدال في حالة الطقس ، والتهاطل الشتوي ، يسود السواحل ، ثم يأخذ في التناقص كلما اتجهنا جنوبا ، ليترك المجال للمناخ الصحراوي المتميز بالجفاف ، والتفاوت الحراري ، وندرة التهاطل ، والهبوب الرملية .

وتعتبر السهول العليا الغربية في الجزائر أفضل مثال على المناطق الواقعة تحت تأثير المناخين معا ، فهي تتعرض في الشتاء لغلبة المناخ المتوسطي البارد ، ومن ثم تتلقى بعض الأمطار والثلوج ، وتجتاحها موجات من الصقيع المؤثر على النبات ، بينما تصبح في الفصول الأخرى مجالا للمناخ الصحراوي ، فتصيبها الحرارة الشديدة صيفا ، وتغمرها رياح « السيروكو » في كثير من أيام الفصلين الآخرين .

ويلاحظ أن هذه التقلبات المناخية الضارة ، تقلل من أهمية المنطقة زراعيا ورعويا ، الأمر الذي أصبغ عليها الفقر الدائم ، فتحتم على سكانها أن يبحثوا لهم عن مجالات أرضية أخرى تساعدهم على كسب القوت ، ومن ثم تعددت حركاتهم الموسمية نحو الشمال عبر التاريخ .

أما الانسان المغربي ، فإن الدراسات الانثروبولوجية تشير إلى أنه ينتمي إلى عنصرين بشريين متميزين ، هما العنصر الأفريقي والعنصر المتوسطي . اختلط هذان العنصران في هذه الحافة الشمالية من قارة افريقيا ، ونتج عن هذا التمازج الجنسي هؤلاء الأحفاد المغاربة .

ومع أن ملامح العنصر الأفريقي لا تزال ملحوظة في الجهات الجنوبية من هذه المنطقة ، الا أن سكان الساحل فقدوا كثيرا من خصائص العرق الافريقي وغلبت عليهم الملامح المتوسطية .

وقد أهل هذا التوضع البشري الانسان المغربي لأن يقيم علاقات مع عالمين مختلفين ، هما عالم افريقيا ما وراء الصحراء والعالم المتوسطي ، وأن يلعب بذلك دور الوسيط في الايصال الحضاري بين شعوب هاتين المنطقتين عبر التاريخ .

2 ـ الاطار التاريخي :

لم يحظ تاريخ المغرب القديم باهتمام المؤرخين العرب ، شأنه في ذلك شأن تاريخ بقية المناطق العربية الاسلامية الأخرى . وذلك نظرا للظروف التي كانت تحيط بالمؤرخين آنذاك ، ومنها الرغبة في قطع الصلة بالفترة الوثنية السابقة للاسلام ، والتركيز على الحقبة الاسلامية الزاخرة بالأحداث ، بالاضافة إلى جهل أولئك المؤرخين بالتاريخ القديم عامة نتيجة جهلهم باللغات القديمة التي كانت تحتفظ بمعلومات هامة ورئيسية عن ماضي الأمم والشعوب القديمة .

وحتى ابن خلدون المشتهر بكتابة تاريخ المغرب ، وبغزارة معلوماته المتعلقة بحياة المغاربة في العصور الوسطى ، لم يتمكن من التعمق إلى ما قبل الفتح الاسلامي ، ومن ثم فإن ما جمعه ابن خلدون من معلومات حول تلك الفترة لا يفي بغرض الباحث في هذا الموضوع .

وأمام هذا الصمت ، ظل تاريخ المغرب القديم مجهولا ، يلفه الغموض ، إلى ان ظهر الاهتمام الاروبي بالتاريخ القديم ، واحتل الفرنسيون والايطاليون المغرب العربي ، فوجدوا المجال فسيحا ، والمصادر المادية من الفترة الرومانية وفيرة وظاهرة للعيان . وهيأت لهم النهضة العلمية في ميدان البحث التاريخي أسباب النجاح . كما سهلت عليهم سيطرتهم السياسية على المنطقة مهمة الكشف عن الفترة السابقة للاسلام من تاريخ المغرب .

غير أنه لكون هؤلاء الباحثين ينتمون إلى حضارة لاتينية مسيحية ، فإن اهتمامهم كان مركزا على المخلفات الأثرية للفترة الرومانية والمسيحية ، فاجتهدوا في إبراز تاريخ المغرب خلالها باعتبار أن هذا النوع من الدراسة يمكنهم من الكشف عن القواعد المتينة للحضارة الرومانية المسيحية . ولعلهم كانوا يسعون من وراء ذلك إلى تحقيق فكرة الاعتماد على تلك القواعد القديمة لبناء جسر حضاري روماني ـ فرنسي بحيث أن

هؤلاء كانوا يعتبرون أنفسهم في وقت ما ورثة الحضارة الرومانية اللاتينية في بلاد المغرب ، وأنه لا يسعهم إلا أن يعملوا على صيانة ذلك الميراث الحضاري وابرازه واستغلاله في المجال السياسي .

على أنه نظرا للظروف السياسية التي نشطت فيها تلك الحركة التاريخية ، فان الصياغة التي وضعها أولئك الباحثون لتاريخ المغرب في الفترة السابقة للاسلام لا تخلوا من اغراض سياسية ، ومن ثم فإن الواجب يفرض علينا محاولة الاسهام ببعض الجهد لإعادة النظر في تلك الصياغة ، على ضوء دراسة موضوعية جديدة لهذا التاريخ .

واختياري لفترة الاستعمار الروماني ، دفعتني اليه رغبة حثيثة لدراسة تلك المرحلة العسيرة من تاريخ المغرب . وهي مرحلة يراها بعض الباحثين ـ من ذوي النزعة الاستعمارية ـ أفضل المراحل التي مرت بها شعوب المنطقة ، حيث تأتى لهذه الشعوب ، في نظرهم ، أن تعيش في غمرة الحضارة الرومانية ردحا من الزمن ، وأن تنعم في ظلها بنصيب كبير من الأزدهار . بينما تبدو تلك المرحلة ، من أشد فترات التاريخ المغربي عنـاء من وجهة نظر مغربية . وذلك نظرا لطابع الاستغلال الاقتصادي والبشري الذي اتصفت به السيطرة الرومانية .

وقد جذب انتباهي ما كانت تمتاز به سياسة الرومان في هذه البلاد من مظاهر الدهاء الذي ينم عن حنكة وتبصر ، مدعومين بالقوة العسكرية ، والتي استغلت إلى حد بعيد الظروف السياسية المغربية (الخلافات السياسية الداخلية) ، وهي ظروف صعبة كان المسؤولون المغاربة يعانون منها ، فتمكنت تلك السياسة من الايقاع بهم في حبائلها . ومن ثم الحاق بلادهم بالممتلكات الرومانية تدريجيا . وهذا ما ساعد الرومان على العمل من أجل تغيير الكيان الاقتصادي والحضاري للمغرب بواسطة عملية « الرومنة » ، وهي عملية هامة وبعيدة الآثار جعلتني اختار اسم « سياسة الرومنة في بلاد المغرب » ، عنوانا لهذا البحث .

وفي الحقيقة تقتضي طبيعة الموضوع أن يعطي البحث كل الفترة الرومانية منذ سقوط الدولة القرطاجية عام 146 ق . م ، إلى سقوط المنطقة في أيدي الوندال عام 430 م . ذلك أن « الرومنة » مظهر سياسي واقتصادي وحضاري ، لازم الوجود الروماني منذ البداية إلى النهاية .

غير أن شروط البحث العلمي تلزمني بالتركيز على أهم الأحداث العسكرية والسياسية والأقتصادية الممهدة « للرومنة » .

ويبدو أنه من المتعذر على رسالة متواضعة كهذه أن تستوعب جوانب الموضوع بعمق وشمول ، ومن ثم فإن بعض هذه الجوانب قد لا يتوفر لها العمق الكافي والتحليل الجيد المدعمان بالحجج والأسانيد التاريخية ، وذلك بسبب غزارة الموضوع من جهة وندرة المعلومات حوله من جهة أخرى .

وعلى كل أعتبر هذه الرسالة مقدمة مصغرة لبحث أكثر تركيزا وشمولا آمل أن تتاح لي فرصة متابعته في المستقبل القريب

يحتوي البحث على خمسة فصول كالآتي :

ـ الفصل الأول ، تناولت فيه بعض المشاكل السياسية للممالك المغربية القديمة التي لها علاقة بالصراع الروماني ـ القرطاجي . لان تلك المشاكل تسجل مظهرا لبداية النفوذ الروماني في بلاد المغرب من جهة ، وهي تعبر من جهة أخرى ، عن الأهمية التي كانت تتبوؤها المنطقة خلال ذلك الصراع الكبير ، مما جعلها تكون منطقة تجاذب ونزاع بين القوتين المتحاربتين . كما تبرز تلك المشاكل وجها من أوجه التأثير الخارجي الذي حال دون تحقيق الوفاق السياسي بين المغاربة ، أي أن هذا الفصل يلخص الاجراءات التمهيدية لمباشرة سياسية « الرومنة » .

ـ أما الفصل الثاني ، فقد ضمنته الاحتلال الروماني لبلاد المغرب ، بما اتصفت به سياسة ذلك الاحتلال من بطء وتدرج ، عملا بأساليب الترغيب والترهيب ، وما تنطوي عليه من مبادىء التحالف ومظاهر سياسة « فرق تسد » .

ـ ويحتوي الفصل الثالث ، على السياسة الادارية الرومانية في بلاد المغرب . مع تحليل لوضعية المغاربة الاجتماعية ، ضمن القوانين الرومانية ، على اعتبار أن تلك السياسة الادارية والتشريعية ، تعكس صورة واضحة للسياسة العامة « للرومنة » .

ـ وتناولت في الفصل الرابع ، الناحية الاقتصادية من سياسة « الرومنة » . مركزا على أهم القواعد الاقتصادية آنذاك ، وهي الفلاحة . فحاولت أن أبرز وضعية الارض ، وأساليب الانتاج قبل الاحتلال الروماني . ثم الاجراءات الأولية التي اتخذها الرومان بعد الاحتلال ، من أجل السيطرة على الارض ، واستغلالها لصالح الاقتصاد الروماني .

ـ أما الوجه البشري والاجتماعي لسياسة « الرومنة » ، فقد أفردته بالفصل الخامس والاخير من هذا البحث . وركزت فيه على سياسة الاستيطان الروماني في بلاد المغرب ، متتبعا مراحلها وآثارها الاجتماعية والاقتصادية . ذلك أن حركة الاستيطان تمثل قاعدة رئيسية من قواعد « الرومنة » نظرا للتحولات التي أحدثتها تلك الحركة في الأرياف والمدن المغربية ، حيث عملت على خلق بيئات اجتماعية رومانية فيها ، ما لبثت أن تركزت جذورها وراحت تعمل على استقطاب فئات اجتماعية مغربية ، وادماجها تدريجيا في الحياة الاجتماعية الرومانية .

ولا يفوتني أن أسجل الصعوبات التي واجهتني في إنجاز هذا البحث المتواضع ، وأبرزها انعدام مصادره باللغة العربية ، وتشعب المعلومات التاريخية في المصادر الاجنبية ، فضلا عن صعوبة التمييز بين الحقائق التاريخية المجردة ، وبين التأويلات الموجهة التي يسوقها أصحاب هذه المصادر .

هوامش المقدمة

1 ـ المغرب : تسمية جهوية ، أطلقها العرب على البلاد الواقعة غربي النيل ، أي أن العرب كانوا يطلقون اسم المغرب على مجموع المنطقة الممتدة من وادي النيل بمصر الى المحيط الأطلسي ، وتسهيلا لتحديد الأقطار التي تحتوي عليها هذه المنطقة الشاسعة ، كانوا يطلقون على الجزء الشرقي منها اسم المغرب الأدنى ، نظرا لقربه النسبي من مركز الخلافة الاسلامية ، وعلى الجزء الذي يليه في القرب اسم المغرب الأوسط ، وهو الجزائر حاليا تقريبا ، وأطلقوا على الجزء البعيد منه اسم المغرب الأقصى ، أي المغرب الحالي .

2 – Despois (J.), l'Afrique Blanche, (Introduction) P.V.

3 – Gautier (E.F.), le passé de l'Afrique du Nord, P. 10

4 ـ شارل أندري جوليان ، تاريخ أفريقيا الشمالية (معرب) ، ص . 34 .

5 ـ نفسه ، ص . 35 .

مختصرات بعض المراجع الطويلة

A.N.F.H.	L'Afrique du Nord française dans l'histoire.
O.H.A.R.	L'olivier et l'huile dans l'Afrique romaine.
A.R.A.O.M.	L'Armée romaine de l'Afrique et l'occupation militaire de l'Afrique
H.A.A.N.	Histoire ancienne de l'Afrique du Nord.
R.A.N.	La Romanisation de l'Afiique du Nord.
F.P.A.	Fastes des provinces africaines.
C.A.R.	La civilisation de l'Afrique romaine.
R.A.T.R.	Recherche archéologique à Tanger et dans ses régions.
Bell. Jugh.	Bellum Jughurthinum.
B.A.	Bulletin archéologique.
R.A.	Revue africaine.
C.R.T.	Les cités romaines de la Tunisie.
T.R.H.A.N.	Textes relatifs à l'histoire de l'Afrique du Nord.
R.H.C.M.	Revue d'histoire et de civilisation du Maghreb.
P.U.F.	Presses universitaires de France
Ed.	Edition.

توضيح

وردت في الكتاب اختلافات في كتابة أسماء الاعلام والأماكن والوظائف نتيجة النقل من اللغات الأجنبية إلى العربية ، خاصة ما كان مصدره أولا في اللغتين الاغريقية واللاتينية ثم ترجم إلى اللغات الأروبية المختلفة ، ومنها نقل إلى العربية . كما نشأت بعض تلك الاختلافات عن محاولة كتاب العربية تسهيل النطق بتلك الأسماء على القارىء العربي .

ولكوني اعتمدت في هذا البحث على المصادر الاجنبية ، وردت فيه بعض أسماء الاعلام بصيغتين احيانا ، مما دفعني إلى الحاقُ هذا التوضيح المتضمن لبعض الصيغ المتباينة لأسماء الاعلام أو الوظائف في الكتب العربية . وهي كالتالي :

اغسطوس = أوغسطس = أغسطس .
اوكتافيانوس = اوكتافيوس = اكتافيوس .
بومبيوس = بومبي .
البونيقي = البوني .
موريتانيا = موريطانيا .
ايتاليا = ايطاليا .
بلين الكبير = بلين القديم = بلين الاكبر .
بلين الصغير = بلين الاصغر .
ابيانوس = أبيان .
كاتو = كاتوس = كاطون = قطون .
نواب الشعب = نواب العامة .
قبائل الجيتول = جدالة .
تارنت = تارنتوم .
سيفا = سيغا = صاغة

غايا = غية .
عليسا = عليسة = أليسار .
عزربعل = (صدربعل) هزدربعل .
قزيل = غزيل .
كايوس كراكوس = جايوس جراكوس .
مسطنبعل = مستنبعل .
هيرودوت = هيرودوتس .
هاملكار = عبد ملقرط = عملقرط .
سيراكوزة = سرقوسة .

الفصل الأول

المشاكل السياسية للممالك المغربية القديمة ،وعلاقاتها بالصراع الروماني ـ القرطاجي

1 ـ ظهور الممالك المغربية القديمة .
2 ـ الخلافات السياسية بين النوميديتين ، وموقف القرطاجيين والرومان منها :
أ ـ دورَ قرطاجة في الخلافات النوميدية .
ب ـ انقلاب ميزان القوة لصالح الرومان ، وتردد الملك سيفاكس .
3 ـ وضعيه العرش النوميدي بعد ماسينيسا :
أ ـ علاقة روما بوراثة العرش النوميدي بعد مسيبسا .
ب ـ سيطرة يوغرطة على الوضع في نوميديا وتدخل روما .
حـ ـ موفف بوكوس ملك موريطانيا من القضية النوميدية .
د ـ تسوية مشاكل نوميديا بعد يوغرطة .
4 ـ هوامش الفصل الأول .

1 ـ ظهور الممالك المغربية القديمة :

ليس لدينا من المصادر التاريخية الكافية التي تثبت بصفة قطعية وجود كيان سياسي مغربي مكتمل الشروط ، قبل ظهور قرطاجة . وباستثناء اسطورة عليسا[1] التي تشير الى وجود نوع من التنظيم السياسي المغربي في منطقة تونس الحالية أواخر القرن التاسع ق . م ، أي قبل ظهور قرطاجة ، فإن معلوماتنا حول هذا الموضوع لا تزال تفتقر الى سند تاريخي يضع حدا للتساؤلات العديدة التي تثيرها الاسطورة . حتى ان المؤرخين اعتقدوا بعدم وجود نظام سياسي وطني ببلاد المغرب قبل القرن الثالث

ق . م ، وانه لا يرجح ان تكون هناك ممالك سابقة لمملكة نوميديا ، التي ظهرت في هذا القرن بشطريها :

1 ـ نوميديا الشرقية ، وتدعى ماسيليا Massylie نسبة الى قبائل الماسيل التي أسستها .

2 ـ نوميديا الغربية ، وكانت تدعى مازيسيليا Masaessylie ، نسبة الى قبائل المازيس التي انفصلت عن الأولى سياسيا لأسباب مجهولة .

ثم أن أوائل الملوك المغاربة الذين ورد ذكرهم في المصادر التاريخية ، بالنسبة للمملكتين المذكورتين ، يتصدرهم غايا Gaya [2] ملك نوميديا الشرقية ، التي تبدأ حدودها الشرقية من الحدود الغربية لأراضي الدولة القرطاجية ، وسيفاكس Syphax ملك نوميديا الغربية ، التي لا تعرف حدودها بصفة مضبوطة . ولعل الأسباب التي جعلت المصادر تحتفظ بذكرى هاتين المملكتين أنهما عاصرتا الحرب البونية الثانية ، وشاركتا فيها مشاركة مصيرية .

على أنه يبدو أن أواخر القرن الرابع ق . م ، شهد نوعا من الأنظمة السياسية المغربية المجاورة لقرطاجة ، بدليل ما ذكره ديودور الصقلي Diodore de sicile من أن ملكا نوميديا يدعى ايلماس Ylmace ، حالف اغاتوكليس Agathocles الاغريقي الذي غزا السواحل القرطاجية عام 310 ق . م [3] . الا أنه يصعب اعتماد هذه الاشارة كدليل على وجود مملكة مغربية مكتملة الشروط ، دفعها النضج السياسي والوعي الوطني الى التحالف مع اعداء القرطاجيين رغبة في استئصال دولة قرطاجة من التراب المغربي .

ويبدو لي أن السبب في هذه الصعوبة يعود الى فقدان المصادر الكتابية القرطاجية المعاصرة لتلك الأحداث ، ذلك أن كل ما يمكن أن يكون قد سجل من طرف الكتاب القرطاجيين ، حول الاوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي كانت تسود المنطقة المجاورة لقرطاجة ، قد التهمته النيران التي اضرمها الرومان في هذه المدينة عام 146 ق . م ،

وهو العمل الذي أتى على التراث القرطاجي بكامله . فحرمت الانسانية من الاستفادة [4] من حصيلة تجربة كبيرة من تجارب الانسان ، قام بها الرواد الفينيقيون وأحفادهم القرطاجيون في الحوض الغربي للبحر الابيض المتوسط والساحل الاطلسي من الجزر البريطانية الى ساحل غانا . ثم إن المعطيات الاثرية التي تعود الى هذه الفترة في بلاد المغرب لم يكتمل الكشف عنها في المنطقة المغربية ، ومن ثم ظلت حقائق تاريخية كثيرة غامضة أمام الباحثين . إضافة إلى ذلك فإن المؤرخين المعاصرين لتلك الفترة من الاغريق أمثال هيرودوت Hérodote وتوسيديدس Thucydides وكزينوفون Enophon كانت معرفتهم بالمنطقة معرفة محدودة ، حيث اقتصرت على الجهة الشرقية ، مثل برقة الواقعة تحت النفوذ الاغريقي . وإن كان هيرودوت قد سجل بعض الاخبار حول سكان المنطقة الواقعة غربي ليبيا [5] الحالية . الا أن هذه الأخبار غير وافية ويشوبها الغموض ، نظرا لكون المؤرخ المذكور نقلها عن طريق المشافهة والتراجمة ، ولم يزر بقية المنطقة التي وصفها في كتابه ، أو يسجل اخبارها عن كتب ، كما هو الشأن بالنسبة لاخباره عن مصر وسوريا وبلاد ما بين النهرين .

وعلى كل يمكن لبعض الملاحظات أن تثير التساؤلات حول احتمال وجود انظمة سياسية مغربية سابقة للقرن الثالث قبل الميلاد .

أولى هذه الملاحظات ، هي أن دولة قرطاجة قد ظلت تدفع ضريبة للمغاربة المجاورين لها منذ أن تأسست (814 ق . م) ، الى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد [6] ، وهو القرن الذي شهد ازدهارا اقتصاديا ، بلغته قرطاجة بفضل رواج تجارتها ، كما صاحب ذلك نمو سياسي وعسكري مكنها من مد رقعة نفوذها السياسي غربا ، فشملت توسعاتها منطقة الحوض الغربي للبحر الابيض المتوسط والساحل الاطلسي ، فضلا عن ضمها لاراضي المغاربة المجاورين ، كي توسع إقليمها على حسابهم [7] .

ويبدو أن انقطاع القرطاجيين عن دفع التزاماتهم للمغاربة (الليبيين في تلك الظروف ، ناتج عن احساسهم بالقوة التي بلغتها دولتهم آنذاك ، فاصبحوا لا يخشون باس هؤلاء المغاربة . واذا لم يكن هذا الاحتمال هو الارجح ، فما سر تلك الضريبة إن صحت ؟ وهل تدل على وجود نظام سياسي ما ، كان يمارس السيادة على المنطقة التي قامت فيها مدينة قرطاجة ، فارغمها على الاعتراف له بالسلطة ، وكانت الضريبة عنوان هذا الاعتراف ؟ ، أم ان قرطاجة كانت تدفع تلك الضريبة لزعماء القبائل المجاورين لها كي تتقي غاراتهم المفاجئة ، وبذلك تكون الضريبة المشار اليها عربون أمن وسلام لا غير ؟ .

والملاحظة الثانية يمكن استخلاصها من طبيعة الأخبار الخاصة بالمغاربة ، وهي التي تضمنتها روايات المؤرخين القدماء ، فهي تتصف بالقلة وعدم الشمول ، بحيث انها لا تتعرض لاحداث الفترة السابقة للصدام الروماني القرطاجي فيما يخص بلاد المغرب . ثم أنها حتى في فترة الحروب البونية لا تغطي جميع المنطقة المغربية من الشرق إلى الغرب ، اذ أن تركيزا واضحا قد سلط على المنطقة الشرقية المحيطة بقرطاجة ، بينما يكاد ينعدم ذكر أحداث المنطقة الغربية في كتابات هؤلاء المؤرخين ، حتى مملكة موريطانيا لم يرد عنها شيء مهم من الاخبار مع أنها كانت في فترة الحرب البونية الثانية تسيطر على المنطقة الممتدة من الملوية إلى المحيط الأطلسي .

ومدلول هذه الملاحظة هو أن جهلنا للاحداث التاريخية التي صاحبت حياة الممالك الوطنية منذ نشأتها ، ليس دليلا على أن هذه النشأة كانت حديثة ، ولم تتجاوز نهاية القرن الثالث قبل الميلاد .

أما الملاحظة الثالثة فهي تتمثل فيما عرف عن مملكة نوميديا الموحدة ، على يد ماسنيسا Massinissa من مظاهر القوة الاقتصادية والسياسية ، الأمر الذي يبعث على الاعتقاد في احتمال وجود نظم سياسية سابقة لتلك المملكة ، مهدت السبل لهذا النمو والازدهار ، الذي نسبه

المؤرخون القدماء الى عاهلها ماسينيسا[8] . غير أن هذه الملاحظات ستظل محاطة بعلامة استفهام كبيرة ، ما لم تتوفر المستندات التاريخية التي توفر الاجابة القاطعة وتبعد التساؤلات .

2 ـ الخلافات السياسية بين النوميديتين ، وموقف القرطاجيين والرومان منها

على الرغم من صعوبة الوصول الى الظروف التي نشأت فيها الممالك الوطنية المغربية ، وتعذر الاحاطة بانظمتها السياسية ، وعلاقاتها ببعضها ، فان الأحداث التي سجلها وجود تلك الانظمة ، قد احتفظ التاريخ ببعضها ، خاصة منها ما يتعلق بالصراع الروماني القرطاجي . تتجلى تلك الاحداث فيما نشب بين نوميديا الغربية ونوميديا الشرقية من نزاعات اقليمية ، يعسر تحديد أسبابها ، لأن هذه الأسباب لها علاقة بالماضي الغامض ، وقد يعود بعضها الى صراع قبلي قديم .

وأمام صعوبة التعمق في تلك الاسباب التي يحيطها الغموض ، يحسن الاقتصار على تتبع الاحداث التي نشأت عن الخلافات السياسية بين النوميديتين ، ومدى مساهمة القرطاجيين والرومان في اذكاء تلك الخلافات . إذ يبدو ان المشاكل السياسية التي حدثت بين النوميديتين ، والتي نشبت بين خلفاء غايا ، ثم مسيبسا ، لم تأخذ صفة الحدة التي أحالتها إلى صراع دموي طويل المدى ، الا بعد ان تدخلت التأثيرات الاجنبية الممثلة في القرطاجيين أولا ، وفي الرومان ثانيا ، الذين عملوا على توسيع شقة الخلاف بين المغاربة ، خدمة لأهدافهم في المنطقة .

أ ـ دور قرطاجة في الخلافات النوميدية :

يبدو أن أبرز عامل ساعد على نمو الخلاف وتعميقه بين مملكة نوميديا الشرقية ونوميديا الغربية ، إبان الحرب البونية الثانية ، يكمن في عدم قدرة الديبلوماسية القرطاجية على التوفيق في محالفة المملكتين معا ، واقامة سياسة من التوافق بين العرشين ، تكون أساسا للوئام والمودة بين الانظمة السياسية في المنطقة المغربية . ذلك أن الصراع السياسي بين النوميديتين قد ظهر بوضوح ، وخظي بالتسجيل ، منذ ان تحولت سياسة قرطاجة الى الغرب

المتوسطي ، في إطار استراتجيتها الجديدة عقب الحرب البونية الأولى ، التي خرجت منها مهزومة ، وهذا التحول في الاهتمامات القرطاجية ، تطلب استمالة المملكة النوميدية الغربية عن طريق تحسين العلاقات معها .

وعملا بهذا الاتجاه أبدت دولة قرطاجة ميلا الى الملك سيفاكس ، بحكم موقع مملكته من شبه جزيرة ايبيريا التي كانت الجيوش القرطاجية تعسكر فيها استعدادا للحرب الثانية ، وكان هذا الميل من مستلزمات الاجراءات الاستراتيجية لقرطاجة ، بهدف تامين خط الرجعة أمام جيوشها وحماية ظهر هذه الجيوش ، وضمان إمدادها من أقرب الطرق ، وهذه عملية لا تتأتى الا عبر مملكة سيفاكس ، الممتدة من سيرتا الى وادي الملوية .

غير أن غايا ملك نوميديا الشرقية قد أعلن الحرب فجأة على قرطاجة عام 220 ق . م[9] ، وهي حرب لا تزال أسبابها مجهولة ، وكانت هجوماته على أراضي قرطاجة ساحقة ، حيث تمكن من اجتياح مساحات واسعة من الأراضي الخصبة ، في منطقة باجا Vaga وما جاورها في حوض مجردة Bagradas الاعلى . وأصبح الوضع العسكري غير ملائم بالنسبة لقرطاجة ، لانها مقبلة على خوض حرب كبرى ضد الرومان ، وليس في صالحها أن تتسع جبهة القتال لتشمل ضفتي الحوض الغربي للبحر المتوسط شمالا وجنوبا ، خاصة وان جيرانها المغاربة في وضع يؤهلهم لان يكونوا في صفها ، وليس ضدها ، نظرا لما يربطها بهم من وشائج ، أقلها حسن الجوار الطويل والمصالح المشتركة ...

وتفاديا لمصاعب خطيرة ، قد تنتج عن مواصلة الهجومات النوميدية على أراضي قرطاجة ، أذعنت هذه الأخيرة لمطالب الملك غايا الاقليمية ، وأخذت تعمل على استمالته والتحالف معه . غير أن هذا السلوك القرطاجي أحدث رد فعل من جانب الملك سيفاكس ، صاحب نوميديا الغربية ، فأعلن الحرب ضد القرطاجيين ، الأمر الذي حتم على عزربعل Hasdrubal ان يوجه قسما من جيشه المرابط في اسبانيا ،

لاخضاع مملكة سيفاكس[10] . وهنا تبدو علائم إخفاق السياسة القرطاجية تجاه جيرانها النوميديين .

هيأت هذه الاحداث فرصة ثمينة لروما لان تتدخل وتسيطر على الموقف ، وأحسنت استغلال تلك الفرصة عندما كلفت قائد جيشها في شبه جزيرة ايبيريا باجراء اتصالات مع سيفاكس ، في شأن التحالف معه ضد الملك غايا وقرطاجة . وتنفيذا للخطة حل الوفد الروماني المفاوض على الملك سيفاكس اثناء اشتداد الأزمة بينه وبين القرطاجيين عام 213 ق . م[11] . وتمكن الوفد من اقناع الملك بالقيام بعمل مشترك ، هدفه تحطيم كل من قرطاجة والملك غايا .

ووفقا لرواية تيت ليف Tite-live ، نجح المفاوضون الرومان في مهمتهم لدى الملك سيفاكس ، فتحول الى صداقة الرومان . كما يضيف نفس المؤرخ بأن أحد أعضاء الوفد المذكور أقام مع الملك بصفة مستشار[12] . وتدل هذه الرواية ، إن صحت ، على أن الرومان لم يكونوا يطمئنون الى الملك سيفاكس . فاشترطوا عليه بقاء الممثل الروماني عنده في صورة سفير لهم في مملكته .

عملا باتفاقية التحالف Allience ، التي تمت بين الرومان وسيفاكس ، اجتاز الملك البحر الى اسبانيا على رأس جيش هام ليشارك في الحرب الدائرة هناك إلى جانب الرومان . ويذكر المؤرخون أن أول اصطدام له مع الأمير ماسنيسا تم هناك ، عندما كان هذا الأخير يقاتل إلى جانب القرطاجيين على رأس الفرسان النوميديين . وكان أبوه غايا قد أوفده إلى هناك لمساعدة القرطاجيين منذ عام 212 ق . م[13] .

ويبدو ، من جهة أخرى ان الملك سيفاكس كان حريصا على تمتين العلاقات بينه وبين الرومان ، إذ بعث بوفد الى مجلس الشيوخ الروماني Senatus يذكره بما كان قد تم بينه وبين القائد الروماني سيبيون Scipion ، وليتأكد من وعود هذا الأخير ، ومن ثم

تكتسب اتفاقية التحالف التي تمت بينه وبين الممثلين الرومان طابعا رسميا يجعل الملك مطمئنا الى بنودها التي لم يوضحها المؤرخ تيت ليف .

وروى هذا أن وفد سيفاكس لقي استقبالا حسنا من طرف مجلس الشيوخ الذي بعث مع الوفد ، عند عودته ، ممثلين خاصين ، يحملون هدايا إلى الملك ، رمزا للصداقة وتمتينا للعلاقات بين الطرفين (14) .

على ان مظاهر النجاح التي سجلتها السياسة الرومانية لدى الملك سيفاكس – من أجل فتح جبهة وراء القرطاجيين – لم تمنع هؤلاء من استرجاع الملك سيفاكس إلى صفهم ، وذلك بأساليب يصعب التعرف عليها ، نظرا لسكوت المصادر عنها ، ما عدا زواج الملك سيفاكس من الأميرة القرطاجية سوفونيزبة Sohponisbe ابنة عزربعل جسكون Hasdrubal Jescon ، وهو الجانب العاطفي الذي حظي باهتمام الكتاب فأولوه عناية خاصة ، واعتبروه الورقة السحرية الرابحة التي اهتدت اليها قرطاجة ، من أجل استعادة نفوذها السياسي في المملكة الثائرة واسترضاء الملك الغاضب (15) .

غير أنه ليس من المستبعد أن تكون تلك المصاهرة القرطاجية – النوميدية عملا سياسيا سعت قرطاجة من ورائه النجاح فيما فشلت فيه من قبل ، وهو محالفة الملكين النوميديين معا ، وتوحيد المنطقة المغربية في جبهة سياسية واحدة ، تدعم بها المعركة الدائرة بينها وبين الرومان وراء البحر . غير أن النتيجة كانت مخيبة لآمال القرطاجيين فيما يبدو ، إذ أن تلك المصاهرة السياسية أثارت مشاعر الأمير ماسنيسا ، الذي قيل انه كان يرغب في التزوج من الأميرة القرطاجية سوفونيزبة ، وأنه وعد بها قبل سيفاكس . وقد زاد في تعميق المشكلة وفاة الملك غايا والد ماسنيسا عام 207 ق . م ، وما تلا ذلك من نزاع حول وراثة العرش ، وتدخل قرطاجة والملك سيفاكس في موضوع الخلافة .

والظاهر ان ماسنيسا نظر بعمق لابعاد الحوادث الجارية ، وما يمكن أن يترتب عنها من تغييرات سياسية وتقلبات في ميزان القوى بين القرطاجيين

والرومان ، خاصة وأن هؤلاء قد نجحوا في التخلص من الطوق الذي فرضه عليهم القائد القرطاجي حنبعل Hannibal في إيطاليا ، وأخذوا يقومون بهجومات معاكسة ، فظهر للامير ماسينيسا أن يستفيد من التحولات الجديدة بالتعامل مع الرومان ، كي يتمكن من تحقيق مطامحه السياسية في عرش نوميديا ، خاصة وأن منافسيه في المملكة قد ارتبطوا بالجانب القرطاجي .

وكان لموقف ماسينيسا أثر واضح على الصراع الدائر بين القرطاجيين والرومان ، إذ ساهم في نقل ميدان المعركة من ميادينها المألوفة في شبه جزيرة ايبيريا وايطاليا إلى الشواطيء الجنوبية من البحر المتوسط ، أي إلى منطقة النفوذ القرطاجي في المغرب .

أما الأسباب المباشرة لهذه التغييرات المفاجئة في علاقة الدولة القرطاجية بالممالك الوطنية ، فتعود إلى ما أعقب وفاة الملك غايا من حوادث حول استخلافه .

ذلك أنه عملا بنظام وراثة العرش النوميدي ، المتعارف علية ، آلت المملكة إلى ايزلصيس Aezalces كبير العائلة المالكة . لكن الموت عاجله مبكرا حيث توفي في السنة نفسها (207 ق . م) ، وخلفه ابنه كبوسا Capaussa ، وهو أكبر من الأمير ماسينيسا . لكن مازيتول Mazaetule (16) أحد الضباط الكبار ، انقض على الحكم ، وابعد كبوسا ليولي مكانه لكومازيس Lacumazes شقيق الملك المبعد (17) ، وهو أصغر من ماسنيسا ، ولا حق له في وراثة الحكم قبله ، تبعا للعرف المتبع في الحكم ، أدت هذه الحوادث إلى انقلاب ماسنيسا ضد قرطاجة ، بعد أن تبين له ان لها يدا مع سيفاكس في تحريك تلك الأحداث ضد مصالحه السياسية في الحكم . واعتبر ذلك تدخلا في شؤون المملكة ، فضلا عن كونه يعد تنكرا ، في نظره ، من طرف الدولة القرطاجية لخدماته التي أسداها لها بوقوفة مدة ست سنوات (212 – 206 ق . م) إلى جانبها في اسبانيا .

وفي تلك الظروف وجد ماسنيسا في الرومان من يؤجج نار الحقد في قلبه على القرطاجيين ، ويثير فيه روح الانتقام منهم ، ومن حليفهم سيفاكس ، وهذه الفرصة كان الرومان يتحينونها من أجل القيام بعمل يعزل أعداءهم القرطاجيين عن حلفائهم ، وذلك باثارة المتاعب الداخلية بين ظهرانيهم ، عملا بمبدأ تفكيك الجبهة الداخلية للعدو ، وضربه من الداخل . وهذا اسلوب كان القائد القرطاجي حنبعل قد استخدمه مع حلفاء روما في ايطاليا نفسها ، حيث استطاع أن يؤلب قسما كبيرا من القبائل الايطالية ضد روما ، ويتمكن من ضرب حصار خطير حولها . وذلك بواسطة التحالف الذي أبرمه مع مجموعة من المدن المجاورة لعاصمة الرومان . والظاهر أن روما اقتدت باساليب عدوها حنبعل ، كي تقوم بهجوم معاكس ضد القرطاجيين ، فأوعزت الى القائد سيبيون الافريقي Scipion l'africain المعسكر في اسبانيا [18] ، لأن يقوم بمجهود سياسي تجاه الأمير النوميدي الغاضب ماسنيسا ، قصد استمالته وعقد تحالف معه ، يكون بمثابة جسر يمكن الرومان من النزول في أراضي الأعداء القرطاجيين .

والظاهر كذلك ، ان القائد سيبيو ن لم يجد صعوبة كبيرة في اقناع الأمير ماسنيسا بوجهة نظر الرومان ، واغرائه بالتعاون معهم لاستعادة مملكة والده من مغتصبيها وحلفائهم ، حيث ان التحالف قد تم بين الأمير ماسنيسا والقائد سيبيو ن بسرعة . أي في نفس السنة التي جرت فيها تلك الاحداث بنوميديا (206 ق . م) ، مما يشير الى سرعة تحرك الديبلوماسية الرومانية ، وفعالية هذا التحرك في استغلال الظروف المواتية .

تضمن التحالف خطة للعمل العسكري المشترك بين الرومان والأمير ماسنيسا على أرض المغرب كلها ، وعلى التخوم القرطاجية خاصة ، وتم الاتفاق على ان يكون انزال الجيوش الرومانية في شواطىء نوميديا الشرقية ، حيث يكون ماسنيسا في الانتظار ، بعد ان يمهد للحملة الرومانية في المنطقة سياسيا وعسكريا ، ومن ثم ينطلق النشاط العسكري الروماني – النوميدي ضد القرطاجيين وحليفهم سيفاكس [19] .

وبعد رسم خطة هذا المشروع في اسبانيا ، غادرها كل من القائد سيبيو ن وماسنيسا ، فتوجه الأول الى روما للحصول على منصب القنصلية مجددا ، بينما اجتاز الثاني مضيق اعمدة هيرقل (مضيق طارق حاليا) : ليلتحق بمملكة ابيه المغتصبة . فنزل عند الملك الموريطاني باغا Vaga الذي تكفل بنقله عبر مملكة سيفاكس ، بواسطة حرس خاص اوصله الى حدود مملكة نوميديا الشرقية [20] .

وعمل الملك الموريطاني هذا ، يثير احتمال تورطه في قضية العرش النوميدي ، أو في الصراع الروماني القرطاجي على الأقل . فتصرفه مع ماسنيسا يكون بدافع العداوة مع سيفاكس ، أو انه يضمر سوء نية نحو قرطاجة ، ومن ثم يكون على علاقة ما بالرومان ، الأمر الذي يحتمل معه ان يكون القائد سيبيو ن هو الذي أوعز اليه بمدّيد المساعدة لماسنيسا . ويجد هذا الاحتمال الاخير ما يقويه في الاحداث التي اعقبت سقوط سيفاكس عام 203 ق . م وتوسعات ماسنيسا على حساب مملكة نوميديا الغربية ، حيث ان فتوحات ماسنيسا لم تتجاوز الحدود الغربية لمملكة سيفاكس ، وهي تنتهي عند وادى الملوية ، حيث تبدأ الحدود الشرقية لمملكة موريطانيا . وتوقف ماسنيسا عند هذا الحد ينبه الى ما يمكن ان يكون قد تم بينه وبين الملك الموريطاني باغا ، حول مستقبل المنطقة المغربية بعد تصفية الحساب مع سيفاكس .

غير أنه من الصعب إثبات أحد الاحتمالات السابقة أو نفيه بسبب ما يحيط الملك باغا من صمت ، إذ أن أخبار مملكة موريطانيا في هذه الفترة لم يرد ذكرها في كتب المؤرخين ، ولعل السبب في هذا السكوت يعود الى الدور الثانوي الذي لعبته المملكة في تلك الحوادث الكبرى بالمنطقة المغربية .

ب – انقلاب ميزان القوى لصالح الرومان وتردد سيفاكس :

اذا كان ماسنيسا ، قد انقلب على قرطاجة [21] ، معلقا مستقبله السياسي على نتائج الحرب الدائرة بين الرومان والقرطاجيين ، وعلى النشاط

الايجابي الذي يجب أن يقوم به في تلك الحرب لصالح حلفائه ، فان سيفاكس من جهته حاول أن يستفيد من الاحداث الجارية ايضا . لكن تردده بين القوتين المتحاربتين ، روما وقرطاجة ، جعله يفشل في تحقيق أهدافه .

ويبدو ان لتردد سيفاكس اسبابا لا تعود كلها الى تأثير زوجته القرطاجية عليه ، كما اجمع على ذلك المؤرخون[22] ، بل ان محاولة التراجع التي قام بها عام 203 ق . م ، عن حليفته قرطاجة ، ومساعيه السلمية لدى الرومان ، يمكن أن تفسر بالوضع العسكري القرطاجي الذي أصبح غير ملائم ، منذ أن حقق الرومان انتصارات عامة ضد القرطاجيين في اسبانيا وهي الانتصارات التي سقطت فيها المدينة القرطاجية الجديدة (قرطاجنة) Carthagena بأيدي الرومان عام 209 ق . م[23] . وقد ظهر منذ ذاك أن المعارك في صالح الرومان ، حيث تمكنوا من اجتياح شبه الجزيرة الايبيرية . واستطاعت الاستراتيجية الرومانية أن تقضي على محاولات الامداد الموجهة الى حنبعل في ايطاليا ، عبر البحر المتوسط ، وأصبح واضحا أن انتعاش روما العسكري ستكون له عواقب وخيمة على قرطاجة وحلفائها ، إذ أن علائم الانهاك قد بدأت تظهر على الجيوش القرطاجية ، ففقدت زمام المبادرة ، ولم تستطع انقاذ الموقف في اسبانيا ، كما فشلت في الاتصال بقائدها الكبير حنبعل ، المحاصر في ايطاليا . وأخيرا كان الهجوم المعاكس الكبير الذي قام به سيبيو ن على الشواطيء القرطاجية عام 204 ق . م ، منذرا بالخطر الداهم على كل من قرطاجة وسيفاكس . هذا بالاضافة الى استفحال امر ماسنيسا في نوميديا الشرقية ، حيث تمكن من الحصول على اتباع ومؤيدين له ، من بين القبائل في نوميديا الشرقية ، عبأهم للقتال في صفوفه ، وهو أمر جعل عملية القضاء عليه مستحيلة التحقيق في نظر سيفاكس .

وسواء كانت هذه الأسباب أصح ، أو تلك ، في تفسير التردد الذي طرأ على سيفاكس ، في مواقفه السياسية تجاه الدولتين المتحاربتين ، فان القائد الروماني سيبيو ن لم يصغ لصوت السلم الذي ردده سيفاكس . ويظهر أن القائد سيبيو ن قد رأى في ماسنيسا ما يكفي لضمان النصر على قرطاجة ، فلم يشأ أن يتورط في محاولة التوفيق بين الملكين النوميديين اللذين فشلت الديبلوماسية القرطاجية في كسبهما معا .

أما الاحداث العسكرية ، فقد أسفرت عن النتيجة التي رسم مخططها سيبيو ن وماسنيسا قبل افتراقهما في اسبانيا عام 206 ق . م . لقد وضعت معركة سيرتا Cirta عام 203 ق . م . حدا لنشاط سيفاكس الذي وقع في قبضة ماسنيسا[24] ، وتلتها معركة زاما Zama عام 202 ق . م . التي أسفرت على هزيمة القرطاجيين بقيادة حنبعل . وانتهت الحرب البونية الثانية باستسلام قرطاجة لشروط الرومان المنتصرين . أما النوميديتان الشرقية والغربية ، فقد سقطتا تباعا في يد ماسنيسا وحلفائه الرومان ، دون أن تعوقهم المقاومة الواهنة التي أبداها حلفاء سيفاكس للتمسك ببقايا المملكة[25] .

3 ـ وضعية العرش النوميدي بعد ماسنيسا :

رغم النهاية الحاسمة التي أفضت اليها النزاعات الاقليمية بين المغاربة ، بدعم من القوى الاجنبية ، فان مشكلة العرش النوميدي لم تسر في طريق الحل النهائي ، كما كان متوقعا لها . ذلك ان الخلافات حول وراثة العرش قد تجددت في صورة أكثر خطورة ، وسلكت القضية هذه المرة اتجاها وطنيا معاديا للوجود الروماني في المنطقة المغربية ، مما سبب لروما متاعب كبيرة لاخضاع نوميديا الثائرة .

ومجمل القضية هنا يتمثل في النزاع الحاد الذي نشب بين أحفاد ماسنيسا عقب وفاة الملك مسيبسا Micipsa عام 118 ق . م . وكان يوغرطة Jugurtha بطل تلك الاحداث ومحور تلك القضية المصيرية بالنسبة للمملكة النوميدية . والفضل يعود إلى الكاتب

الروماني سالوست Salluste الذي أفرد قصة بوغرطة بكَتاب هام ، يعد المصدر الوحيد لتلك الاحداث التي وصلتنا تفاصيلها ، كما سجها سالوست ، صورة ومضمونا[26] .

اما جذور المشكلة فتمتد الى وفاة ماسنيسا عام 148 ق . م ، عندما كانت الحرب البونية الثالثة على اشدها بين الرومان والقرطاجيين ، فقد ترك ماسنيسا اولادا كثيرين أكبرهم وابرزهم ثلاثة (غلوسا Gulussa ومسطنبعل Mastanabal ومسيبسا Micipsa .

ويفهم من المصادر ان ماسنيسا كان يشعر بالخطر الذي يتهدد المملكة من بعده اذا ما شب الخلاف بين أولاده حول العرش ، لأنه من الصعب ارضاؤهم بالقاعدة العرفية المرعية في الخلافة ، والمعتمدة على أن أكبر أفراد العائلة المالكة سنا هو الذي تعود اليه مقاليد المملكة . كما تتفق الروايات على أنه أمام هذه الوضعيه المنذرة بالانفجار ، ارتآى العاهل النوميدي المحتضر أن يسلم أمر المملكة الى القائد الروماني سيبيو ن الايميلي ليقرر مصير الخلافة بعد وفاته .

وفي هذا الموضوع يقول قزيل Gsell : « قبل وفاته كان قد كلف سيبيو ن الايميلي بتسوية أمر استخلافه »[27] .

غير انه يلاحظ ان مكانة ماسنيسا لدى مواطنيه كانت مرموقة ، فقد بلغ اعجاب الرعية به حد العبادة مما يجعل احتمال خطر التمزق في المملكة أمرا مستبعد الحدوث ، في حالة ما إذا عهد بها لأحد ابنائه ، واوصى اخوته بمؤازرته والامتثال اليه ، ودعا الرعية الى الطاعة والاخوة والوحدة . لكن ينبغي الا يهمل من حساب الباحث في هذه القضية ما كان يربط الملك ماسنيسا بحلفائه الرومان من قيود تتعلق بمصير المملكة ، فعرشه مدين لهم بالولاء لانهم هم الذين توجوه رسميا عقب القضاء على خصمه الملك سيفاكس عام 203 ق . م . ولولا ذلك التتويج والدعم الروماني الذي تلاه ، لما تمكن ماسنيسا من البلوغ بمملكته تلك الدرجة المرموقة من القوة السياسية والاقتصادية في المنطقة المغربية .

ومن هنا يمكن القول بان ماسنيسا ، لم يوكل أمر الخلافة لسيبيوس الايميلي Scipion Emlien الا بعد ان نظر مليا فيما تمليه عليه نوعية العلاقة التي تربطه بالرومان ، فرأى من الحكمة ان يجنب خلفاءه الصدام بالرومان وان يرضى هؤلاء بارجاع أمر الخلافة اليهم كي يقوموا بعملية التتويج كما فعلوا معه من قبل ، ومن ثم يضمن مستقبلا حسنا للعلاقات بين خليفته وحلفائه الرومان . وبذلك انقذ ماسنيسا مملكته من احتمال احد الخطرين : الفتنة الداخلية بين أولاده حول وراثة العرش . أو نقمة الرومان في حالة عدم استشارتهم في موضوع الخلافة .

وفي هذا النطاق يمكن وضع مهمة سيبيوس الايميلي المتعلقة بتقسيم المملكة النوميدية بين ابناء ماسنيسا الثلاثة الكبار . لقد رأى سيبيوس من الحكمة أن يوزع المسؤوليات والمهام فيما بينهم حتى يجنب الرومان العواقب التي يمكن ان تنجم عن ثورة احدهم على الذي ينفرد بالخلافة من جهة ، ولكي يشعرهم بأن الرأي الفصل في القضايا الاساسية للمملكة تعود إلى الرومان ، وهم أصحاب النفوذ الكبير في المنطقة المغربية آنذاك .

وكانت نتيجة توزيع المسؤوليات على الاخوة الثلاثة ، أن أسندت الادارة الى مسيبسا ، الذي يمتاز على اخوته بثقافته وتعقله ، وسلمت قيادة الجيش الى غلوسا ، الذي كان يقود الجيش النوميدي ، في الحرب الدائرة آنذاك ، الى جانب الرومان . اما مسطنبعل ، فقد أوكله سيبيو ن مهمة القضاء ، غير أن مسيبسا ما لبث أن جمع كل المسؤوليات بعد وفاة أخويه غلوسيا ومسطنبعل .

وبهذا التقسيم الحاسم ، نامت مشكلة العرش النوميدي مدة ثلاثين سنة ، استغرقها حكم مسيبسا (148 ـ 118 ق . م) ، ثم استيقظت المشكلة من جديد اثر وفاة هذا الاخير عام 118 ق . م . وكان العنصر النشيط في هذه المرة شخص لا يحمل نوايا طيبة للرومان ، ذلك هو يوغرطة بن مسطنبعل ، الذي كانت نتيجة وقوفه في وجه النفوذ الروماني مشابهة لما حدث للملك سيفاكس من قبل .

أ ـ علاقة روما بوراثة العرش النوميدي بعد مسيبسا :

تتصف اخبار وراثة العرش النوميدي بعد مسيبسا بملابسات وغموض كبيرين ، فقد خلا كتاب سالوست « حرب يوغرطة Bellum Jugurthinum » من المعلومات المتعلقة بهذا الموضوع ، إذ أن سالوت لم يذكر فيما إذا كان مسيبسا قد قسم المملكة قبل وفاته بين ابنيه أذربعل Adherbal وهيمسال Hiempsal وابن أخيه يوغرطة . أم أنه ترك ذلك للسلطة الرومانية صاحبة الحق في توريث الخلافة ، كما فعل أبوه ماسنيسا عام 148 ق . م . ثم أن سالوست لم يذكر كذلك فيما إذا كانت روما قد تدخلت مباشرة عقب وفاة الملك مسيبسا لتقسيم المملكة ، أو أنها وافقت أو لم توافق على التقسيم الذي تم بين الورثة الثلاثة (أذربعل ، هيمسال ، يوغرطة) .

أما المؤرخون فقد تناولوا هذا الموضوع باقتضاب . من ذلك أن بالو دى ليسارت Pallu de lesserte صاحب «حوليات الولاية الافريقية Fastes des provinces Africaine يرجح تدخل روما مباشرة لتسوية قضية الخلافة ، ويذكر أن حاكم ولاية أفريكا بوركيوس كاتون Porcius Caton لعام 118 ق . م ، قد كلف من طرف مجلس الشيوخ الروماني ، بالفصل في هذه القضية ، كما فعل سيبيوس الايميلي بالنسبة لخلافة ماسنيسا عام 148 ق . م . بينما يشك المؤرخ قزيل في هذا الرأي ، معتمدا على أن حاكم أفريقيا المذكور قد توفي هو الآخر في نفس السنة (118 ق . م)[29] . وبما أن تاريخ وفاة كل من الملك مسيبسا والحاكم بوركيوس كاتون غير محدد ، خلال تلك السنة ، لمعرفة من الأسبق ، فإنه من الصعب الأخذ بأحد الرأيين دون الآخر . إلا أنه يمكن الرجوع إلى أخبار سالوت لاستجلاء بعض الحقائق من خلال إشاراته العرضية ، فقد أورد خطابا مطولا لمسيبسا ، وهو على فراش الاحتضار ، ألقاه على ورثته الثلاثة ، تعرض فيه إلى ضرورة ـ الاتحاد والاخوة فيما بينهم ، للحفاظ على وحدة المملكة

وصيانة كيانها ، ويفهم من هذا الخطاب أن مسيبسا أوصى لثلاثتهم بالخلافة . إلا أن صيغة الخطاب ومعانيه الفلسفية الاخلاقية أمور تقلل من الاعتقاد في نسبته الى مسيبسا ، إذ أن نزعة سالوست الى المواعظ الاخلاقية ، قد سيطرت على هذا الخطاب . بالاضافة الى أن هذا النوع من الخطب كان معروفا آنذاك ، وظل ساريا بعد سالوست ، يلقيه الاباطرة على خلفائهم كأمثل درس مؤثر في الاخلاق الوطنية[30] . وفضلا عن هذا الخطاب ، فان سالوست قد أورد في كتابه « حرب يوغرطة » رسالة لسيبيو ن الايميلي بعث بها الى العاهل النوميدي مسيبسا عام 133 ق . م ، تعتبر شهادة حسن السيرة لصالح يوغرطة الذي عمل في صفوف الجيش الروماني على رأس فرقة من الفرسان النوميديين اثناء الحرب الرومانية ضد النومانسيين les Numances (134 ـ 133 ق . م) في شبه جزيرة ايبيريا . وتوحي اشادة سيبيو ن الايميلي بيوغرطة الى الاذهان بان القائد الروماني قد نبه مسيبسا الى ضرورة إشراك يوغرطة في وراثة العرش[31] : « إن يوغرطة جدير بك وبجده ماسنيسا » .

وذكر سالوست أيضا ان مسيبسا قد أصدر قانونا يتضمن تبنيه لابن اخيه يوغرطة[32] وذلك قبل وفاته باعوام ، أي بعد عودة يوغرطة من اسبانيا يحمل رسالة سيبيو ن الآنفة الذكر ، مما يدل على أن مسيبسا خضع لضغط حلفائه الرومان ، وعمل بنصيحتهم رغم ما فيها من خطر بالنسبة لمستقبل ولديه اذربعل ـ هيمسال ، حيث أن التبني معناه منح حق الوراثة الشرعية للمتبنى ، ومعنى هذا أن قرار التبني يعد تحولا من طرف مسيبسا تجاه ابن اخيه الذي لم يكن يتوسم فيه خيرا بالنسبة لولديه[33] .

والظاهر أن هذا التحول لم يكن نابعا عن حسن نية أو طيبة خاطر من طرف الملك مسيبسا ، إنما كان ذلك نتيجة ضغط سياسي خارجي سلط عليه من طرف حلفائه الرومان ، بطريقة لم تحتفظ لنا المصادر بوصف عنها ، ما عدا الرسالة التي رواها سالوست . ومما يبعث على هذا الاعتقاد ما جاء في وصية الملك مسيبسا ، وهو على فراش الاحتضار ، من عبارات الاستعطاف والاستمالة التي توجه بها الى يوغرطة يناشده أن يفتح قلبه

لمحبة ورعاية اذربعل وهيمسال[24] ، وهي عبارات ، ان صحت نسبتها الى الملك النوميدي ، تنم عما كان يشعر به الملك من العجز أمام يوغرطة الذي يظهر انه اكتسب هذه المهابة من المكانة الخاصة التي كان يتبوأها عند الرومان . وهي المكانة التي لا يستبعد أن تكون السبب الرئيسي في تزكيته من قبلهم ، لان يحصل على حق المشاركة في وراثة العرش النوميدي بعد الملك مسيبسا .

واذا أخذنا من جهة أخرى بما جاء في رسالة اذربعل الى مجلس الشيوخ ـ بعد مقتل أخيه ـ من عبارات التبعية المطلقة ، فاننا نسلم بكون مسألة الاستخلاف في المملكة النوميدية لم تكن من الأمور التي يملك النوميديون حق التصرف فيها وحدهم ، فقد جاء في الرسالة المذكورة ـ حسب رواية سالوست دائما ـ ان اذربعل لا يعتبر نفسه أكثر من وكيل لروما في نوميديا ، مذكرا بان هذا الاعتبار هو وظيفة اسلافه ، وانه يقتفي أثرهم في الاخلاص للدولة الرومانية[35] .

وخلاصة القول ، ان التحليل السابق يبعث على الاعتقاد بأن تسوية أوضاع المملكة السياسية كان من اختصاصات مجلس الشيوخ الروماني صاحب السلطة العليا على المملكة الحليفة ، ومن ثم فليس مهما أن يكون مجلس الشيوخ قد مارس اختصاصاته هذه بواسطة حاكم افريقيا ، كما ذهب الى ذلك بالودى ليسارت ، أم انه فعل ذلك بطريقة أو بأخرى لم تحتفظ بها المصادر .

ب ـ سيطرة يوغرطة على الوضع في نوميديا وتدخل روما :

انفجر الوضع المتأزم حول العرش النوميدي فاودى بحياة هيمسال[36] أحد الثلاثة المتنافسين واصغرهم سنا ، والحقت الهزيمة بأخيه اذربعل عندما حاول أن ينتقم لأخيه من يوغرطة ، ويحد من طموحه في الاستئثار بالمملكة لوحده . واحال اذربعل القضية على مجلس الشيوخ الروماني ، آملا ان يحصل منه على التفاتة عطف وتأييد ، فبادر مجلس الشيوخ بارسال لجنة يرأسها اوبيميوس Opimius [37] لتقسيم المملكة

النوميدية بين اذربعل ويوغرطة ، وذلك عام 116 ق . م[38] . ونتج عن ذلك التقسيم تسليم المنطقة الشرقية من نوميديا المجاورة لولاية افريقيا إلى اذربعل ، بينما كان القسم الغربي من المملكة نصيبا ليوغرطة .

ويبدو أن التقسيم كان أنسب الحلول التي وصلت اليها الديبلوماسية الرومانية في تلك الظروف ، لان قوة يوغرطة بدأت تبرز في المنطقة المتنازع عليها ، فكان من الاساليب الحكيمة لروما ان تستميل يوغرطة سياسيا لتضمن لنفسها دوام النفوذ في نوميديا ، وتجنب نفسها التدخل عسكريا في المنطقة لصالح اذربعل ، الذي يبدو ان سمعته لدى مجلس الشيوخ كانت اضعف من ان تؤهله للظفر التام بثقة الرومان ، الى درجة العمل على وضع زمام المملكة النوميدية كلها في يده ، فهو زيادة على صغر سنه لم يكن يتمتع بقوة الشخصية التي يظهر انها من الصفات البارزة التي تفوق بها عليه خصمه يوغرطة .

والظاهر ان يوغرطة استغل هذه السمعة في تشييد مجده السياسي على حساب ابن عمه اذربعل ، حيث هاجمه عام 113 ق . م ، وحاصر سيرتا الى ان سقطت في يده في العام التالي . ورغم المقاومة التي أبدتها الجالية الايطالية في المدينة ، فان الهجوم اليوغرطي الكاسح انتهى بمقتل خصمه اذربعل في صيف 112[39] ، وبتحطيم قوة المقاومين الرومان الذين رأوا الخطر الوطني يعصف بمصالحهم في البلاد ، فصمموا على المقاومة حتى النهاية . وبنهاية اذربعل اصبحت نوميديا بشطريها الشرقي والغربي مملكة موحدة تحت زعامة يوغرطة .

على اثر هذه التطورات الخطيرة على المصالح الرومانية وجدت روما نفسها وجها لوجه أمام يوغرطة الطموح ، الذي هدم حاجز الامان بينه وبين الرومان بعد ان استولى على القسم الشرقي من نوميديا ، واصبحت حدود مملكته متاخمة للولاية الرومانية ، وبات من المؤكد لدى الرومان ، ان يوغرطة الذي لم يتورع عن ضرب الجالية الرومانية في سيرتا بعنف ، لا يتردد في مهاجمة الولاية الرومانية من أجل تحرير المنطقة المغربية كلها

من السيطرة الرومانية ، وتوحيدها تحت زعامته ، وأن جرأته التي دفعته الى انتهاك الحدود التي أقامتها روما بينه وبين ابن عمه اذربعل لا تقف به عند حدود الممتلكات الرومانية .

وتعالت الاصوات في روما مطالبة بتأديب النوميدي المتطاول على الارادة الرومانية ، وانقاذ سمعة روما وهيبتها في المنطقة المغربية . وبعد مداولات مجلس الشيوخ الروماني بشأن الحرب ، تم الاجماع على إرسال حملة عسكرية لاخضاع يوغرطة ، وابحرت الحملة بقيادة القنصل كالبورنيوس باستيا Calpurnius Bastia المعروف بمقاومته لحركة الاصلاح التي تزعمها الكراكيان[40] . لكن يوغرطة تمكن من اقناع القنصل باستيا بالعدول عن القتال ، وعقد معه صلحا ، وهو الصلح الذي اتخذ منه سالوست موضوعا خصبا لان يوجه التهم فيه الى القنصل باستيا ، وان يرميه بالرشوة وخيانة المصلحة العليا للشعب الروماني في نوميديا . لكن يبدو ان القائد الروماني كان في أمسّ الحاجة الى تلك الهدنة ليتمكن من العودة الى روما من اجل ترشيح نفسه لمنصب القنصلية مجددا لعام 110 ق . م . غير ان مجلس الشيوخ رفض ما تم بين يوغرطة والقنصل باستيا ، ودعا المجلس يوغرطة للمثول أمامه من اجل التحقيق في الأمر ، والتأكيد من مدى رغبة يوغرطة في السلم والخضوع للرومان .

وانتهى الامر بالمجلس الى رفض الاتفاقية التي أبرمت بين باستيا ويوغرطة ، لانه لم يطمئن الى نوايا هذا الأخير ، خاصة وأن إشاعة الرشوة قد تمسك بتلابيبها خصوم باستيا في مجلس الشيوخ ، وتمكنوا من إقناع المجلس بسحب الثقة منه والتنصل من التزاماته تجاه يوغرطة . بالاضافة الى أن هذا الاخير ، قد اتهم بتدبير عملية اغتيال أحد الأمراء النوميديين المناوئين له في روما[41] .

اعلن مجلس الشيوخ استئناف القتال ضد المملكة النوميدية لارغام يوغرطة على الاذعان والخضوع ، لكن جيش الرومان مني بهزيمة مشينة عام 110 ق . م . الأمر الذي تطلب تغيير القيادة التي تسلمها القنصل

ميتولوس Metullus عام 109 ق . م ، فاحرز هذا انتصارا على يوغرطة في معركة زاما ، استرد به شرف الرومان ، واصاب قوة يوغرطة بوهن ظل ملازما للثوار النوميديين حتى نهاية الحرب التي كانت على يد ماريوس Marius (107 ق . م) . ومساعده سيلا Sylla ، وذلك بعد معارك ضارية كلفت المغاربة تضحيات جسيمة ، تمكن في آخرها المساعد سيلا من القبض على الزعيم يوغرطة بفضل أحبولة المفاوضات[42] ، وذلك في خريف عام 105 ق . م[43] .

ج ـ موقف بوكوس Bocchus ملك موريطانيا من القضية النوميدية

اعتمادا على رواية سالوست ، يجمع المؤرخون على القول بخيانة بوكوس لصهره وحليفه يوغرطة ، مقابل حصوله على مكاسب اقليمية في نوميديا الغربية ، وعده بها الرومان مقدما « جزاء الحث على الخير »[44] .

لكن انقلاب الملك الموريطاني ضد يوغرطة واشتراكه في تخطيط مؤامرة القبض عليه ، كما أورد ذلك سالوست ، سلوك يبعث على التساؤل حول الدوافع التي حركت بوكوس الى القيام بهذا العمل الممقوت . فهل فعل ذلك استجابة لضغائن مكينة بينه وبين يوغرطة . أم أنه انجر وراء وعود الرومان المغرية بمنحه أراضي جديدة ليوسع حدود مملكته شرقا ، والاعتراف به ملكا حليفا للرومان في موريطانيا الموسعة ؟ .

لا تحتوي اخبار سالوست ـ وهي المرجع الوحيد في هذا الموضوع ـ على ما يفيد الاجابة بالنفي أو الاثبات ، حول هذه القضية . غير انه يمكن استشفاف بعض الملاحظات من مجمل رواية سالوست . فقد ذكر ان بوكوس انضم الى يوغرطة لمحاربة الرومان ، وان المغاربة كانوا على وعي بسياسة روما التوسعية[45] . وان كان سالوست يرجع ـ كعادته ـ هذا الانضمام الى ارتشاء مساعدي الملك بوكوس من طرف يوغرطة ، فاثروا عليه لينضم الى الحرب ضد الرومان .

ومن جهة أخرى ، فقد سجل سالوست على لسان بوكوس ، اثناء تبادل الخطب بينه وبين المساعد والمفاوض سيلا ، سجل عبارات تدل على أن بوكوس حمل السلاح الى جانب يوغرطة دفاعا عن مملكته [46] .

تبعث هذه الاشارات على الاعتقاد بان جوا من حسن الجوار كان يسود العلاقات بين نوميديا وموريطانيا قبل ان تتم عملية المصاهرة بين يوغرطة وبوكوس ، وما تبعها من تحالف وطني ضم المملكتين في صف واحد ضد التوسع الاستعماري الروماني ، الذي فضحه يوغرطة بخطاب أمام الجيش النوميدي الموريطاني المتحد [47] ، وان انضمام الملك الموريطاني الى الثورة النوميدية نابع عن شعوره بضرورة توحيد الصف لمواجهة الخطر الروماني . ومن ثم فان ما ذكره سالوست بخصوص رشوة يوغرطة لرجال بوكوس أمر لا يسلم من الشك .

ويبدو ان التفسير المناسب لانقلاب بوكوس ضد يوغرطة يتجلى في الموقف العسكري السيء الذي اصبح الثوار المغاربة يعانونه من جراء حرب الابادة التي شنها الرومان ضدهم ، بالاضافة الى الضغط السياسي الذي سلطه القائد ماريوس على بوكوس لحمله على التخلي عن حليفه يوغرطة ، وذلك بهدف محاصرة هذا الاخير وعزله من الخلف بغلق ابواب موريطانيا في وجهه [48] .

ذلك ان نتائج المعارك الحاسمة التي دارت بين الرومان والنوميديين منذ ان تسلم ماريوس قيادة الجيش المحارب في نوميديا ، كانت تنتهي دائما لصالح الرومان ، وليس مستبعدا ان تكون الهزائم قد اثرت على معنويات بوكوس ، فاصبح يشك في احراز النصر على القوات الرومانية الكبيرة ، خاصة وان ماريوس قد اظهر عزيمة قوية وتصميما شديدا في اخضاع نوميديا ، ويتضح ذلك من الثقة التي اولاه اياها مجلس الشيوخ الروماني ، عندما جدد له القنصلية مرات متتالية . كما تتجسم ارادة ماريوس هذه في حرب الابادة التي شنها على السكان المغاربة قصد ارهابهم والنيل من اخلاصهم للقضية الوطنية التي يحاربون من أجلها .

اما الضغط السياسي الذي مارسه ماريوس على الملك الموريطاني بوكوس لحمله على التخلي عن النوميديين ، فيظهر في الكلمة التي القاها مساعده سيلا على مسمع الملك بوكوس خلال اتصاله به لأول مرة ، في محاولة لحل مشكلة نوميديا بالطرق السلمية ، وقد تضمنت تلك الكلمة ـ حسب رواية سالوست ـ ترغيبا وترهيبا شديدين ، وضعا بوكوس أمام الامر الواقع ، وهو اما ان يفضل الاحتفاظ بالسيادة على العرش الموريطاني في ظل تحالف مع الرومان الذين سيحمونه من أي خطر . وبهذا الاختيار عليه ان ينفذ ما تمليه شروط التحالف من أوامر أبرزها التعاون مع الرومان على انهاء خطر يوغرطة . واما ان يتمادى في دعمه ليوغرطة . وفي هذه الحالة سيتحمل العاقبة السيئة ، لان روما لا ترحم من يقف في وجهها [49] .

ويبدو ان سابقة سيفاكس مع الرومان كانت نتائجها لا تزال ماثلة في ذاكرة بوكوس فأراد ان يتجنب ذلك المنزلق الذي وقع فيه سيفاكس من قبل ، ومن ثم فضل الاختيار الذي يضمن استمرارية المملكة الموريطانية ولو على حساب القضية المغربية عموما .

د ـ تسوية مشاكل نوميديا بعد يوغرطة :

رغم التضحيات الجسيمة التي تكبدها الرومان في اخضاع نوميديا ، فان الانتصار العسكري الذي حققوه فيها لم يفض الى توسعات اقليمية في صالح الاستعمار الروماني ببلاد المغرب ، كما كان الامر بالنسبة لانتصارهم على دولة قرطاجة قبل 41 سنة (146 ق . م) . وهكذا كانت نتيجة حرب الست سنوات (111 _ 105 ق . م) . المريرة ضد الحركة الوطنية في نوميديا ان اكتفت روما بشرف الانتصار ، وقنعت بالدرس القاسي الذي لقنته للمغاربة خلال تلك الحرب ، واعتبرت نهاية يوغرطة المؤلمة عبرة لمن تسول له نفسه من الوطنيين المغاربة ان يسلك سبيلا مماثلا تجاه النفوذ الروماني في المنطقة .

والظاهر ان تحفظ الرومان في الاعلان عن ضم نوميديا عقب انتصارهم فيها راجع الى الاوضاع الداخلية المتدهورة في ايطاليا ، وانشغال مجلس

الشيوخ بنتائج الصراع الاجتماعي الذي خلف آثارا عميقة انعكست على السياسة الداخلية والخارجية للرومان ، ذلك ان مشاريع الاصلاح الزراعي القائمة على اساس التوسع والاستيطان في ايطاليا وخارجها ، قد اخفقت ، ولقي زعماؤها الشعبيون مصيرا مأساويا ، وحدث تراجع عن تلك المشاريع ، وسيطر على الجو السياسي في روما التيار المناهض لسياسة التوسع الاستيطاني من ذوي المصالح والامتيازات في الولايات . في هذا الجو المشحون بالنقمة على الاصلاحيين ودعاة الاستيطان ، تم اخضاع نوميديا ، فلم يشأ مجلس الشيوخ الحاقها رسميا بالممتلكات الرومانية في تلك الظروف ، وفضل ان تبقى تحت الحماية في صورة مملكة حليفة للشعب الروماني يستفيد منها التجار الرومان ورجال الاعمال ، وغيرهم ممن كان طموحهم في الاستغلال الاقتصادي للشعوب الخاضعة لا يقف عند حد .

غير ان ماريوس لم يهمل سياسة « فرق تسد » تجاه البلاد عندما شرع في ترتيب الوضعيه الجديدة لمملكة نوميديا . فقد وهب ثلثها الغربي الى الملك الموريطاني بوكوس حليف الرومان الجديد [50] ، ونصب غودا Gauda شقيق يوغرطة على الثلث الشرقي المجاور للولاية الرومانية .

ويبدو ان ماريوس قد اضطر الى تنصيب غودا على هذا الجزء من المملكة في صورة وارث للعرش النوميدي نظرا لكونه الوحيد في العائلة المالكة ، فتظاهر ماريوس بعدم مخالفته للعرف النوميدي في خلافة العرش ليظهر للنوميديين احترام الرومان لتقاليدهم وسيادتهم . ثم ان غودا كان من الضعف بحيث لا يخشى على مصالح الرومان معه ، وان ضعف شخصيته يجعله يخشى سطوة الرومان ، فيضل خاضعا مخلصا لهم [54] . اما الثلث الاوسط في نوميديا فامره يكتنفه الغموض ، وهناك بعض الاشارات في المصادر تذكر مملكة تحت اسم المستانيزوزوس Mastanesosus قد اسست في هذا الجزء من المملكة . غير أن ظروف قيام هذه المملكة لا تزال مجهولة ، ولسنا ندري ان كان انشاؤها قد تم على يد القائد الروماني ماريوس ، أم انها قامت فيما بعد . الا ان سكوت المصادر حولها يبعث

على الاعتقاد في انها كانت منطقة حرة تفصل بين مملكة موريطانيا الموسعة ومملكة نوميديا المصغرة خشية قيام نزاع بين المملكتين ؟

وبهذه التجزئة السياسية لمملكة نوميديا ، اطمأن الرومان من خطر الوحدة الوطنية ووضعوا العراقيل في وجه الحركة الوطنية بخلقهم للمتناقضات في المنطقة .

وبعد هذه الاحداث المصيرية التي عاشتها بلاد المغرب اسدل ستار كثيف من الصمت على ما جرى فيها حتى منتصف القرن الأول قبل الميلاد ، عندما انفجر الوضع السياسي في روما ، بين القادة العسكريين ، وانعكست نتائجه الخطيرة على بلاد المغرب . أبرزها إلغاء مملكة نوميديا الشرقية واعلانها ولاية رومانية جديدة من طرف القائد يوليوس قيصر Jules César عام 46 ق . م ، بعد انتصاره على خصومه في افريقيا الذين تمكنوا من جذب يوبا الأول ملك نوميديا واقحموه في الصراع . .

4 _ هوامش الفصل الأول:

1 _ اسطورة عليسا (ديدون) تروي قصة تأسيس قرطاجة بطريقة طريفة . طعن في صحتها المؤرخون . انظر : شارل اندري جوليان . تاريخ افريقيا الشمالية ، الجزء الأول (معرب) . ص . 86 .

2 _ يبدو ان غايا ثاني ملك لنوميديا . بالنظر الى المصادر . وهو وريث الملك نارافاس Naravas في المملكة . انظر علاقة هذا الاخير بقرطاجة عند : جوليان . المصدر السابق . ص . 99 .
Camps (G.), Massinissa. P.36

3 - Diodore de sicile, Bibl. Hist. XIII. 80;

4 _ يمكن ان يكون سالوست قد استفاد من كتب بونية في التاريخ . حيث يذكر انه اطلع على بعضها في زاما Zama عاصمة الولاية الجديدة التي حكمها من طرف قيصر عام 46 ق . م .

5 _ جمع المؤرخ قزيل Gsell نصوصا لهيرودوت تتعلق بهذا الموضوع . واخرجها في كتاب تحت عنوان :
Hérodote, textes relatifs à l'histoire de l'Afrique du nord.

6 _ يحدد جوليان عملية دفع الضريبة السنوية لليبيين بانها استمرت « طيلة ثلاثة قرون ونصف من غير انقطاع يذكر » . المصدر السابق . ص . 87 .

7 _ جوليان . المصدر السابق . ص . 90 _ 91 . انظر كذلك : Mommsen (Th), Histoire Romaine, T. 3, PP. 11-12.

8 _ من هؤلاء المؤرخين : بوليبيوس . سترابون كامس .

9 - Camps (G.), Massinissa P. 226.

10 - Gsell (ST), H.A.A.N., T: 3 PP. 118-119

11 - Tite-live, Histoire Romaine, livre 24 P. 584.
(تحقيق والتر (Walter)

12 _ نفس المصدر . ص . 584 .

13 - Gsell (St.), H.A.A N.. T: 3 P. 79.

14 _ نفس المصدر . ص . 183 .

15 - Tite-live, histoire romaine, livre 19, P. 589.
(تحقيق والتر)

16 _ شخصية هذا الرجل العسكري مجهولة . كما ان المصادر سكتت عن الدوافع التي جعلته يستولي على المملكة .

17 - Gsell (St.), H.A.A.N. T: 3 PP. 182-190.

18 _ هو بوبليوس سيبيو ن Publius scipion قائد الجيوش الرومانية في الحرب البونية الثانية . ولما احرز على النصر فيها لقب بالافريقي لكونه قهر افريقيا .

19 - Tite-live, histoire romaine, livre 28, P.587.
(تحقيق والتر)

20 -

21 - Gsell (St.), H.A.A.N., T: 5 P. 191.
Tite-live, histoire romaine, livre 29, P. 589.
(تحقيق والتر)

22 _ أورد قزيل عددا من الروايات لكتاب قدماء . امثال تيت ليف . ويوليبيوس . وآبيان . تتفق في تردد سيفاكس بين مواصلة الاخلاص لحليفته قرطاجة . وبين العدول عن ذلك والانضمام الى الرومان . ويعزو اولئك الكتاب اسباب ذلك التردد الى تأثير زوجته سوفونزبة عليه . انظر حول هذا الموضوع :
Gsell (St.), H.A.A.N., T: 3, P. 223.

23 - Bordet (M), Précis de l'histoire romaine, P. 73.

24 - Tite-live, histoire romaine, livre 29, P. 589.
(تحقيق والتر)

25 _ تجددت هذه المقاومة قبيل الحرب البونية الثالثة (149 _ 146 ق . م) بقيادة اركوبرزان Arcobarazan احد احفاد الملك سيفاكس ، وقد اثارت تلك الثورة قلق الرومان ، خاصة وانها كانت معادية لماسنيسا والرومان معا ، وهو ما حدا بدعاة القضاء على قرطاجة لان يتحججوا بتلك الاحداث من اجل اقناع مجلس الشيوخ الروماني بضرورة اعلان الحرب على الدولة القرطاجية .
انظر مزيدا من التفاصيل في : Gsell (St.), H.A.A.N., T: 5, P. 305

26 _ كايوس سالوست او سالوستيوس Caius sallustius سياسي وكاتب روماني ينحدر من طبقة العوام Plebs . عاش في الفترة ما بين 86 _ 34 ق . م . تقلب بين مناصب سياسية في الدولة الرومانية . منها انه شغل منصب المحاماة (التريبونة Tribunat) عام 52 ق . م . وعضوية مجلس الشيوخ فيما بين 51 _ 46 ق . م . بتقطع . صحب صديقه قيصر في حملته على افريقيا . ونظرا لدوره الفعال في الحزب القيصري عينه قيصر حاكما على ولاية افريقيا الجديدة عام 46 ق . م . ولما عاد بعدها الى روما اعتزل السياسة نظرا لتغلب الطبقة الارستقراطية على مجلس الشيوخ بعد مقتل قيصر . انشأ سالوست في روما الحدائق المشهورة باسمه « هورتي سالوستاني » بالاموال التي حصل عليها من الولاية الجديدة . بدليل ان الخطيب شيشيرون رفع ضده قضية الابتزاز من الولاية .

تفرغ سالوست للكتابة عله يظفر بمجد الشهرة الذي لم يحققه عن طريق النشاط السياسي . فكتب « مؤامرة كاتيلينا » . ثم « حرب يوغرطة » . وذلك بهدف فضح اعدائه من الارستقراطيين . واظهارهم للشعب الروماني بمظهر الخيانة والتواطؤ مع يوغرطة على حساب المصالح العليا للشعب الروماني . وبالتالي تأليب الرأي العام الروماني على اولئك الارستقراطيين . انظر حول سالوست :
Gsell (St.), H.A.A.N., T: 7 P. 124.
وكذلك : عبد اللطيف احمد علي . التاريخ الروماني . ص . 46 _ 47 (الهامش 1) .

27 - Gsell (St.), H.A.A.N., T: 5 P. 123.
"Avant de mourir, il avait chargé Scipion Emilen de règler sa succession"

28 - Pallu de lesserte, F.P.A. T: P. 5.

29 - Gsell (St.), H.A.A.N., T: 7 P. 21

30 _ انظر مقدمة جيرار والتر حول سالوست في كتابه :
"Historiens romains, tite-live, salluste", P. 649-666.

31 - Salluste, Bellum Jughurthinum, par . 9, P. 675.
(تحقيق والتر)

32 _ نفس المصدر . فقرة 10 . ص . 675 _ 676 . (تحقيق والتر) .
_ من المعلوم . أن يوغرطة هو ابن غير شرعي لمستنبعل . وهذا ما جعله يحرم من الحقوق السياسية في وراثة العرش النوميدي . الا اذا تبناه عمه . وهو ما فعله مسيبسا .

33 _ يذكر سالوست ان كراهية الملك مسيبسا ليوغرطة بلغت حدا كبيرا . حتى انه اصبح يدفع به الى المهالك كي يتخلص منه . وفي هذا الاطار اوفده ليحارب في اسبانيا الى جانب حلفائه الرومان .

34 _ جاء في هذه الوصية . حسب رواية سالوست : « باسم هذه اليد (وكان يمسك بيد يوغرطة) التي تمسك بيدك وباسم العرش اطلب منك ان تحيط هذين الصغيرين برعايتك » . نفس المصدر . ص . 675 .
(تحقيق والتر) .

35 _ اورد سالوست هذه الرسالة الطويلة في الفقرة 10 ، ص . 675 . (تحقيق والتر) .

36 _ نفس المصدر ، فقرة 12 ، ص . 677 . (تحقيق والتر) .

37 _ هو احد اعداء الاصلاح الزراعي الكبار ، ساهم في القضاء على حركة كراكوس . انظر : جوليان ، المصدر السابق ، ص . 153 .

38 _ Salluste, Bellum Jughurthinum, par. 12, P. 677. (تحقيق والتر) .

39 _ جوليان ، المصدر السابق ، ص . 156 _ 157 .

40 _ نفس المصدر ، ص . 157 : عبد اللطيف احمد علي . التاريخ الروماني ، ص . 47 .

41 _ هذا الامير النوميدي يدعى مسيوا Massiva . وهو ابن غلوسة وحفيد ماسنيسا ، تاريخ حياته مجهول ، وتوفي حوالي عام 110 ق . م . انظر سلالة العائلة المالكة في نوميديا عند : Mazard (J.) corpus Nummurum Numidiae Mauritaniaeque, P. 28.

42 _ وقع ذلك في صيف 106 ق . م ، انظر : جوليان ، المصدر السابق ، ص . 161 _ 162 . ان حادثة القبض على يوغرطة تذكر بحادثة القبض على ممثلي الثورة الجزائرية عام 1956 من طرف السلطة الاستعمارية الفرنسية ، ومن غريب الصدف ان الحادثتين وقعتا تحت ستار التفاوض ؟ .

43 _ Gsell (St.), H.A.A.N., T: 7, P. 250.

44 _ جوليان ، المصدر السابق ، ص . 162 .

45 _ Salluste, Bell. Jugh., par. P. 96.

46 _ نفس المصدر ، فقرة 102 ، ص . 63 . 77 . (تحقيق والتر) .

47 _ انظر الخطاب الذي نسبه سالوست الى يوغرطة عندما تم التحالف بينه وبين ملك موريطانيا بوكوس ، فقرة 96 من كتابه « حرب يوغرطة » .

48 _ بذل القائد ماريوس جهدا كبيرا لحمل بوكوس على التخلي عن يوغرطة ، وذلك بواسطة التهديد والترغيب معا . ولعب وكيله للمالية سيلا Sylla دورا هاما في هذا السبيل .

49 _ Salluste Bell. Jugh., par. 102, P. 762. (تحقيق والتر) .

50 _ لا تعرف حدود هذا الاقليم معرفة واضحة . غير ان قزيل يرى انه كان يمتد من وادي الملوية ، غربا الى ما وراء الشلف شرقا . انظر : Gsell (St.), H.A.A.N., T: 7, P. 264.

51 _ جوليان ، المصدر السابق ، ص . 162

الفصل الثاني

الاحتلال الروماني لبلاد المغرب

1 _ التوسع الروماني _ عوامله ومراحله العامة .

يعتبر القضاء على قرطاجة عام 146 ق . م ، من أبرز مظاهر السياسة التوسعية التي انتهجها الرومان ازاء شعوب البحر الابيض المتوسط . وكان لهذه السياسة جذور عميقة في تاريخ الرومان ، ترجع الى القرن الخامس قبل الميلاد . وقد اتصفت الحركة التوسعية الرومانية في مراحلها الاولى بالبطء والتدرج . لكنها تسارعت مع الزمن وعظمت آثارها الاستعمارية . ويمكن تشبيهها مجازيا على انها عبارة عن عملية ابتلاع بطيء للجيران في ايطاليا ، تحول الى سرعة في الازدراد ، ابتداء من الحروب البونية الاولى والثانية ، حيث ادت الى مكاسب اقليمية هامة ، حصل عليها الرومان خارج شبه الجزيرة الايطالية ، فتمكنوا من السيطرة على شعوب البحر الابيض المتوسط[1] الغربي بعد ان تم لهم تحطيم دولة قرطاجة في الحرب البونية الثالثة .

أما الوضعية السياسية التي كانت منطلقا لتلك السلسلة من الحركات التوسعية الرومانية ، فيمكن حصرها في الظروف التي احاطت بنشأة

وتطور مدينة روما . ذلك أن هذه المدينة تطورت ضمن عدد من الوحدات السياسية المتنافسة في سهل اللاتيوم Latium . وكانت القبائل اللاتينية التي يتكون منها سكان المنطقة ، لا يستقر الامر بينها ، ولا تدين بالطاعة والولاء لمدينة ما من دول المدن . وعندما اعتنقت مدينة روما نظاما سياسيا جديدا غريبا على المنطقة ، وهو النظام الجمهوري ، ازداد حنق الشعوب المجاورة عليها ، فكان على مجتمع مدينة روما أن يعمل على حماية نفسه من غضب الجيران ، وذلك بسلوكه سياسة دفاعية ، تحولت الى حركة توسعية ، مارستها روما لفرض نظامها الجديد على أولئك الجيران .

ويمكن تتبع سياسة التوسع الروماني ، في ذلك المجهود المتواصل الذي بذلته السلطة الرومانية من أجل السيطرة على الشعوب المتوضعة في شبه جزيرة ايطاليا منذ أواسط القرن الرابع قبل الميلاد[2] . وكان الدأب أهم سمات الاستراتيجية الرومانية تجاه تلك الشعوب العنيدة ، التي رفضت الانصياع لزعامة روما ، من ذلك ان الرومان قد استغرقوا مدة النصف الاول من القرن الرابع قبل الميلاد ، من أجل إخضاع شعب اللاتيوم وحلفائه من الاتروسكيين والسامنتيين . ومن المظاهر التي سجلها التاريخ عن ذلك الصراع المرير ، ما كان يدور فيه من نشاط ديبلوماسي ، مما جعل سياسة التحالف تكون سجالا بين الشعوب الايطالية من جهة ، وبين روما وبعض تلك الشعوب من جهة ثانية . ومن النتائج المترتبة عن ذلك ، أن روما قد اقتربت من حافة الدمار أكثر من مرة على أيدي أعدائها المتحالفين ضدها . غير انها كانت تخرج دائما من الطوق المضروب حولها منتصرة ، وتتمكن من استمالة جيرانها تدريجيا ، ثم كسبهم نهائيا ، وبذلك تبعد الخطر الذي كان يحدق بها .

ومن أهم المنعرجات التي ساعدت الرومان على أن يضعوا أقدامهم على طريق التوسع بثبات ، ذلك الصراع الذي خاضوه ضد خصومهم ، ابتداء من عام 280 ق . م . حيث تمكنوا من ان يستجمعوا قوتهم ويضربوا تجمعات اعدائهم بعنف ، حتى قضوا على خطرهم نهائيا ،

وبذلك غدت روما قوة كبرى في شبه الجزيرة الايطالية ، لا تضاهيها سوى قوة قرطاجة[3] ، وأضحت القوتان الاعظم ، في الحوض الغربي للبحر الابيض المتوسط ، قاب قوسين من بعضهما ، بحيث لم يبق بينهما من الحواجز سوى العنصر الاغريقي الذي كان يستوطن جنوب ايطاليا وصقلية Sicilia ، وهو عنصر أزفت الساعة لكي تزيله روما من المنطقة الحيوية التي كان يشرف عليها الى جانب القرطاجيين .

ولكي تضرب روما هذين العنصرين ـ الاغريقي والقرطاجي ـ فرادى ، سعت لاستمالة المستعمرات الاغريقية في جنوب ايطاليا ، ضد زعيمتها سيراكوزة Syracusa ، وذلك منذ عهد اغاتوكليس Agtatocles الذي حكم سيراكوزة في الفترة ما بين 314 ـ 306 ق . م[4] . كما استغلت سوء العلاقات بين سيراكوزة وقرطاجة ، فتقربت من هذه الاخيرة ، وابرمت معها معاهدة حسن الجوار ـ كما يعبر عنها حاليا ـ تضمنت تحديد مناطق النفوذ بالنسبة لروما وقرطاجة في المتوسط ، بالاضافة الى تقارب الطرفين في وجهات النظر ، تجاه العنصر الاغريقي المشاغب في المنطقة .

أثمرت هذه السياسة ، فانشطر اغريق جنوب ايطاليا الى مؤيدين لروما وثائرين ضدها . وقد تزعمت الثورة ضد المد الروماني مدينة تارنت Tarente التي ما لبثت أن أخضعت ، وتم إلحاقها بمنطقة النفوذ الروماني عام 272 ق . م ، بعد هزيمة زعيمها بيرهوس Pyrrhos في سلسلة الحروب التي خاضها ضد روما وقرطاجة ، وذلك في الفترة ما بين 280 ـ 275 ق . م[5] ، وكانت تارنت أشهر المستعمرات الاغريقية على الخليج المعروف بهذا الاسم ، عند قدم شبه الجزيرة الايطالية .

وباخضاع تارنت انقلب ميزان القوى لصالح روما في المنطقة ، حيث تمكنت من بسط هيمنتها على الاقاليم الجنوبية في المدة ما بين 272 و 265 ق . م[6] . غير أنه يمكن اعتبار عام 270 ق . م ، خاتمة للتوسع الروماني في كامل التراب الايطالي جنوبا ، وذلك حينما فرضت روما

سيادتها على مدينة ريجيوم Rehgium الواقعة على الجانب الايطالي من مضيق مسينا Messaina ، في حين صاحبت هذه الخاتمة مساندة رومانية مطلقة للقراصنة الكامبانيين Campaniens . في الاستيلاء على مدينة مسينا نفسها في الطرف الآخر المقابل لمدينة ريجيوم ، الامر الذي أثار القبائل المامرتية Mamertini المجاورة والمحالفة للقرطاجيين ضد هذه الحوادث ، التي كانت نتائجها واضحة ، وهي اجراءات توسعية رومانية لاحقة في جزيرة صقلية .

ومعنى هذا أن التوسع الروماني قد بلغ أقصاه في الجنوب ، وأنه لم يبق لروما من الخطوات ، الا تلك التي تخطوها على حساب النفوذ القرطاجي في صقلية وغيرها ، أي أن الصدام بين القوتين الكبيرتين بات متوقعا ، بعد أن زال حاجز الامان المتمثل في العنصر الاغريقي بينهما[7] .

من خلال تتبع حركة المد الروماني البطيء في شبه جزيرة ايطاليا – من أجل اخضاع شعوبها وتوحيدها تحت زعامة روما – يمكن القول ان عوامل هذا التوسع كانت عسكرية في بداية الامر ، اوجدتها الاوضاع السياسية الجديدة الناتجة عن عملية الانقلاب الارستقراطي Optimates الروماني ضد النظام الملكي الاتروسكي الذي كان قائما في روما ، واستلزمتها ظروف الدفاع عن النظام المستجد في روما ، وهو الدفاع الذي تحول الى هجوم على الجيران ، لفرض النظام الجديد عليهم بالقوة .

أما العوامل الاقتصادية للتوسع الروماني ، فيبدو أنها كانت في الدرجة الثانية ، وذلك في المراحل الاولى للمد الروماني على الأقل . إذ أنه من الملاحظ أن استغلال اراضي الجيران من طرف الرومان بواسطة الضرائب العينية أو إنشاء المستعمرات Coloniae الزراعية فيها ، انما كان عملا متأخرا بالنسبة لاخضاع المنطقة عسكريا ووضعها في فلك روما سياسيا .

ثم ان سكان مدينة روما في بداية عهدها بالحكم الجمهوري لم يكونوا من الكثرة الى درجة تستدعي التفكير في توسيع المجال الحيوي لروما على

حساب جيرانها ، الا أن ذلك قد حدث بالفعل مؤخرا ، في صورة مشاكل اجتماعية واقتصادية أثارتها الحروب السابقة ، وبعد أن أصبحت روما قبلة العاطلين من سكان الريف والجنود المسرحين ، وسوقا عظمى تضج بالعبيد من مختلف الشعوب والاجناس المقهورة .

أما عملية إنشاء المستعمرات في سهل اللاتيوم ابتداء من منتصف القرن الرابع قبل الميلاد[8] ، فيظهر ان القصد من هذا العمل ليس استغلال المنطقه زراعيا بقدر ما كان عملا عسكريا يهدف الى الوقوف في وجه الحملات الغالية Gaulois المنحدرة من الشمال[9] .

الا أنه رغم ما يبدو من أولوية العوامل العسكرية في حركة التوسع الروماني الباكر ، فان العوامل الاقتصادية قد كانت هي الاخرى ملازمة ، ولو بصورة خفية لجميع النشاطات العسكرية التي تمت في هذا المجال . وظاهرة التداخل بين العوامل العسكرية والعوامل الاقتصادية ، ظلت مرافقة لمراحل التوسع الروماني ، سواء ضمن ايطاليا ، أو في ما وراءها من اراضي الدول والشعوب الاخرى . ذلك أنه رغم أولوية العوامل العسكرية المعبر عنها بما يدعى بقضية الامن الروماني[10] ، والتي كانت تشغل بال مجلس الشيوخ مدى قرون عديدة[11] ، فان المكاسب الاقليمية التي كانت تفضي اليها حروب الرومان ضد جيرانهم ، تعد في حد ذاتها ربحا اقتصاديا ، لا يخلو من التأثير على حركة المد الروماني .

ومن الذين يرجحون أسبقية الدوافع العسكرية للتوسع الروماني ، اندرى ايمار ، الذي يمكن تلخيص رايه في أن روما لم يكن يدفعها الى التوسع عامل الكسب ، بقدر ما كان يدفعها اليه الخوف من جيرانها عندما تنمو قوتهم[12] . غير أن هذا الرأي لا يمكن تعميمه على جميع مراحل التوسع الروماني ، سواء في ايطاليا او خارجها . لان الدوافع قد تغيرت بوضوح خلال الانتصارات العسكرية الكبرى التي احرزها الرومان ضد جيرانهم ، حيث برزت العوامل الاقتصادية والاجتماعية كدوافع قوية لتوسعاتهم . ويذكر المؤلف السالف الذكر ما يفيد بان الطبقات

الاجتماعية الرومانية المختلفة ، أصبحت تبارك الحركة التوسعية الاستعمارية ، نظرا لما تدره عليها تلك الحركة من أرباح ، حيث ظهر رجال الاعمال الذين يرغبون في توسيع المجالات لاستثماراتهم ، كما برزت رغبة الجنود في قيام حروب تضمن لهم مزيدا من الغنائم والمكافآت . فضلا عن الاموال التي كانت تتدفق على روما من الغنائم وعائدات الجزية المفروضة على الشعوب المهزومة ، الامر الذي جعل الارباح تبلغ « درجة حصلت معها عامة الناس على قسطها من سخاء الدولة » . مما جعل مختلف الطبقات الاجتماعية تتحمس للسياسة التي تضمن لها « مثل هذه المكاسب »(١٤) . ومع أن هذا التعليل فيه شيء من التعميم ، بسبب اهمال المؤلف لدور الارستقراطية الرومانية في دفع حركة التوسع الاستعماري ، عبر ايطاليا والبحر الابيض المتوسط . غير أنه يمكن القول ، ان العوامل الاقتصادية قد خلقت في ظل الانتصارات العسكرية ، ونمت يوما بعد يوم مع نمو سلطان الرومان واتساع رقعة سيطرتهم حتى طغت على الجانب الاستراتيجي ، واصبحت وظيفة العسكرية الرومانية تتركز في تثبيت السيادة الرومانية على الشعوب الى جانب الدفاع عن المصالح الاقتصادية ، وحماية حدود الولايات ، التي تدر على الشعب الروماني من خيراتها الوفيرة .

أما من وجهة النظر الاجتماعية ، فالحروب الرومانية كانت تمثل إحدى الحلول المؤقتة لمعضلة المشاكل الاجتماعية التي كان خطرها يتزايد مع الايام ، عندما اكتظت روما بالمتعطلين من مختلف الفئات الاجتماعية ، وضاق مجلس الشيوخ ذرعا بهؤلاء المطالبين بلقمة عيش أو لفتة عدالة ، ومن ثم بات من المتحتم على الدولة الرومانية ان تصرف انظار هؤلاء المشاغبين الى ما يدور من معارك بينها وبين الاعداء ، وتقوم بتعبئتهم لاقتحام الحروب الدائرة على التخوم .

فالخدمة العسكرية في هذه الحال كانت تحقق للدولة الرومانية هدفين هامين :

أولهما ـ اخضاع الشعوب المتألبة عليها في الولايات أو على حدودها .

والثاني ـ يتمثل في التخفيف من حدة المشاكل الاجتماعية الداخلية التي

كانت تنخر الكيان الروماني من الداخل ، وذلك بالهاء الناس بالحروب وجعل العاطلين منهم وقودا لها في غمرة الاغراء بالحصول على الغنائم والأسلاب .

واخيرا تأتي فكرة التيه الروماني لتسيطر على عقول القادة العسكريين والنبلاء ، ثم عامة الشعب الروماني ، وهي تتجلى في الاعتقاد بافضلية الشعب الروماني وعظمته(١٥) ، والايمان بضرورة فرض سيطرته على كافة الشعوب والاقطار .

والظاهر ان هذه العقلية العنصرية ، ظهرت منذ نشأة النظام الجمهوري Rupoblica لدى الرومان ، ثم انتشرت في نمو متزايد خلال فترات التوسع العسكري الاستعماري الذي انتصر فيه الرومان على اعدائهم ومقاوميهم ، ووجدت في تلك الانتصارات العسكرية التي قهرت الشعوب وأخضعتها للسيادة الرومانية افضل سند في عقول الرومان ، حتى باتت من المسلمات التي لا تقبل النقاش لديهم .

ومن الواضح أن أمة يسودها هذا الاعتقاد بالتفوق ، ستكون أمة مشبعة بالروح العسكرية ، متأهبة لمنازلة الانداد الذين يرفضون فكرة التفوق الروماني ، أو الذين ينازعونها السيطرة على مناطق النفوذ من الشعوب المجاورة . لكن أي من العوامل السابق ذكرها ، كان دافعا لقيام النزاع القرطاجي الروماني ، والذي ادى الى السيطرة الرومانية على بلاد المغرب ؟

إن ما يستعرض عادة من ملابسات تاريخية كأسباب مباشرة لنشوب الحرب بين القرطاجيين والرومان في صقلية لاول مرة ، يمكن اعتباره نتيجة لتطبيق فكرة التدرج في التوسع الروماني من اجل استكمال السيطرة على جنوب ايطاليا وملحقاته ، فقضية المامارتيين والكامبانيين ، وتقلبات السيراكوزيين ، ما هي في الواقع الا مظهر من مظاهر الجو المتوتر الذي شحنته المصالح المتضاربة لكل من القرطاجيين والرومان في منطقة صقلية ، لكن المؤرخين اعتادوا اعتبار تلك القضايا اسبابا رئيسية ومباشرة لاشعال نار الحرب بين الدولتين الكبيرتين في صقلية .

والحقيقة ان أسباب ذلك الصدام العنيف بين الطرفين ، تتجلى اهداف كل طرف منه في اهمية مضيق ميسانا Messana الذي يشكل همزة وصل ما بين السواحل الشرقية والغربية بجنوب ايطاليا ، التي اصبحت تحت نفوذ الرومان ، فضلا عن كون المضيق معبرا هاما للتجارة ما بين الشرق المتحضر والغرب البدائي ، وهي تجارة كان التنافس حولها محتدا بين التجار الاغريق والقرطاجيين ، ثم الرومان . وقد استلزم الوضع الجديد بالنسبة للرومان ان يعملوا على استكمال سيادتهم على هذا المضيق الحيوي [15] . غير ان عملا كهذا كان يبدو لهم غير متأت ، الا بالعبور الى الضفة الاخرى من صقلية ، الواقعة ضمن النفوذ القرطاجي . وهكذا كان الصدام حتميا بين القوتين المتقابلتين أملته الاستراتيجية الرومانية الهادفة الى إزالة العائق القرطاجي الذي يعترض طريق التوسع الروماني من جهة ، وحتمته ظروف الدفاع القرطاجي عن مناطق نفوذهم الاقتصاد والسياسي في المتوسط من جهة ثانية ، أي ان وضع القرطاجيين لم يكن في نظر الرومان حاجزا يعوق توسعاتهم فقط ، ولكنهم كانوا يرونه مصدر قلق كبير على مصالحهم في المنطقة ، وبالتالي فالامن الروماني كان يظهر لهم محفوفا بالمخاطر ، ما دام القرطاجيون على ما هم عليه من القوة والنفوذ في صقلية وباقي الجزر المتوسطية .

يضاف الى ما تقدم أن غنى القرطاجيين ، عن طريق نشاطهم التجاري عبر المتوسط ، كان له أثره في تحريك رغبة الرومان للاستئثار بمصادر هذا الغنى ، وهذا يمثل الاهداف الاقتصادية في عملية التوسع الروماني الدائب . وتقوم نتائج الحرب البونية الاولى بين الرومان والقرطاجيين ، دليلا يدعم هذا التفسير ، فقد أسفرت هذه الحرب ، التي انهزم فيها القرطاجيون ، عن ازاحة هؤلاء عن صقلية ، التي تحولت الى منطقة نفوذ رومانية ضمن حلقة الاراضي الحليفة للشعب الروماني ، وما لبثت سردينيا وكورسيكا أن لقيتا مصيرا مماثلا خلال فترة ما بين الحربين البونيتين الاولى والثانية .

أما رد الفعل الذي قام به القرطاجيون ، ممثلا في نشاط هاميلكار Hamilcar في شبه جزيرة ايبيريا قبيل الحرب البونية الثانية ، واكتساح حنبعل لايطاليا نفسها ابان الحرب ، يمكن ادراج هذه العمليات العسكرية الجريئة ضمن المحاولات الكبرى التي قام بها القادة القرطاجيون الطموحون ، من اجل وقف المد الروماني الداهم . غير أن تلك المحاولات الشجاعة ، كانت في الوقت ذاته اخطر العمليات العسكرية على الامن الروماني ، واكثرها تجرؤا على المكاسب الاقليمية الرومانية التي تحققت منذ قرون ، بل كانت حملة حنبعل تشكل تهديدا صريحا للوجود الروماني نفسه في روما . ومن ثم فان الهجوم المعاكس الذي قام به سيبيون الافريقي والمستوحي من تجربتي آغا توكليس وريغولوس السابقتين ، يعد عملا ضروريا لخرق الطوق القرطاجي الخطير وتعزيز هيبة الرومان لدى الشعوب الخاضعة لهم في ايطاليا وخارجها .

وكانت نتائج تلك العمليات العسكرية الكبرى لصالح الاستراتيجية الرومانية المزدوجة الاهداف ، حيث استسلم القرطاجيون لشروط معاهدة (ربيع 201 ق . م) التي أملاها الرومان عليهم إثر هزيمتهم في معركة زاما الشهيرة (اكتوبر 202 ق . م) وبذلك امكن للامن الروماني ان يستتب الى حين . واتسع المجال الجغرافي لهيمنة الرومان على الشعوب المتوسطة ، حيث استولوا على معظم شبه الجزيرة الايبيرية ، ووضعوا أيديهم على باقي الجزر المتوسطية . كما أدرجوا مملكة نوميديا في وضعية الدول الحليفة للرومان ، لتقوم هذه المملكة بعزل القرطاجيين عن المغاربة المؤيدين لهم في المنطقة ، وذلك في نطاق الحصار السياسي والاقتصادي الذي ضربه الرومان على اعدائهم القرطاجيين تمهيدا للقضاء عليهم .

ويبدو ان الديبلوماسية الرومانية عرفت كيف تستفيد من مناهضة ماسنيسا للقرطاجيين وحقده عليهم ، حيث غضت الطرف عن نشاطه التوسعي على حساب الاعداء القرطاجيين ، حتى يعمل على إضعافهم وجرهم الى نقض معاهدة 201 ، والصدام بالرومان . وبالفعل أثمرت

أبعاد التحالف الروماني مع نوميديا في جر قرطاجة الى الحرب الثالثة (149 _ 146 ق . م) ، والتي انتهت بتدمير عاصمة القرطاجيين ، وانهاء كيانهم السياسي ، رغم المقاومة المستميتة التي أبداها هؤلاء دفاعا عن وجودهم .

تم للرومان انشاء الولاية الافريقية على تراب قرطاجة المبادة ، وأشرف سيبيوس الابميلي ، قائد الجيوش الرومانية في الحرب البونية الاخيرة ، على هذه النتائج ، مثلما كان سلفه سيبيوس الافريقي ، قد أشرف هو الآخر على المرحلة الاولى لهذه النهاية المأساوية ، وذلك منذ ما يزيد عن خمسين سنة خلت (نتائج الحرب البونية الثانية) .

وبازالة الدولة القرطاجية اكتسحت الجيوش الرومانية أصعب جبهة واجهتها في عملياتها العسكرية التوسعية . كما غدت روما وريثة حضارتين راقيتين في منطقة المتوسط ، بعد أن لقيت مدينة كورنثه Corenthe مصيرا مشابها لمصير قرطاجة على يد الرومان .

والظاهر أن هذه النتائج كان لها اكبر الاثر على تعزيز الامن الروماني الذي كانت تحفه الاخطار ، فضلا عن المجد العسكري الذي حصلت عليه الدولة الرومانية ، وهو ما دعم لديها فكرة الارادة الرومانية التي لا تقهر .

وامتدت الحدود الرومانية ، لاول مرة الى ما وراء المتوسط ، وحتى تخوم الصحراء ، وبذلك اصبح الرومان يسيطرون على محاور الطرق التجارية ومراكزها في الجانب الجنوبي من حوض البحر الابيض المتوسط ، وهو ما يعد مكسبا اقتصاديا هاما حققوه في ظل الانتصارات العسكرية .

وبالنسبة للممالك الوطنية المغربية ، فان زوال قرطاجة يعتبر بمثابة انهيار للجدار الحصين الذي كانت تحتمي خلفه بلاد المغرب ، ومعنى هذا ان بقية المنطقة المغربية اصبحت مكشوفة امام الرومان ، وبالتالي ، فان استيلاءهم عليها بات امرا ميسورا ومتوقعا . وقد وجد المغاربة انفسهم ، ضمن المغطيات الجديدة ، وجها لوجه امام الاستعمار الروماني ، فراحوا يسلكون اساليب مختلفة للمقاومة وتمديد الاجل ، وتجسدت تلك

الاساليب في الثورات المسلحة التي اندلعت في عدة جهات خلال ازمنة متفاوتة ، لمقاومة الاستعمار الروماني . كما تجلى بعض تلك الاساليب ، في المناورات السياسية التي حاول بها زعماء نوميديا ، ان يحافظوا على استقلال بلادهم ، خاصة منها تلك التي قاموا بها خلال الازمات السياسية الرومانية مثل ما فعل الملك يوبا الاول ازاء الحرب الاهلية الرومانية . لكن القوة الرومانية تمكنت من التغلب على مختلف المحاولات العسكرية والسياسية المغربية ، وتم للرومان إخضاع البلاد والسيطرة عليها ، وراحوا يمارسون فيها مختلف اساليب الاستعمار والاستغلال تحت شعار مبدأ « الرومنة » المدعمة بقوة السلاح .

2 _ أوضاع المغرب بعد سقوط الدولة القرطاجية :

اكتفى الرومان بتراب القرطاجيين ليكونوا منه محتوى اقليميا لولايتهم الافريقية Provincia Africa ، ويضم هذا الاقليم مساحة تقدر بحوالي خمسة وعشرين ألف كلم مربع . تمتد من طبراقة Tabarca (شرقي القالة) غربا ، الى خليج قابس (خليج السيرت الصغير Syrtus minor) جنوبا ، وفصلوا هذا الاقليم عن المملكة النوميدية بخندق يعرف باسم Fossa Regia ، وهو يأخذ شكل هلال مفتوح اكثر في نهايتيه ، مارا بالحدود الغربية للولاية ، بحيث بقيت باجة Vaga وتبرسق Thubrsicu ودقة Thugga في تراب نوميديا ، ثم ينحني في اتجاه جبل فكيرين بالجنوب الغربي من جبل زغوان .

غير ان هذا الاقليم لم يكن كله معتبرا في ملكية الرومان ، اذ ان مجموعة من المدن في الولاية الافريقية كانت مستثناة باراضيها من مجموع هذا الاقليم ، وابقت عليها روما في صورة مدن حرة Civitas lebiras تتمتع باستقلال نسبي في تسيير شؤونها والاشراف على ممتلكاتها ، ومن تلك المدن : اوتيكا Utica التي اتخذ منها الرومان عاصمة للولاية ، وسوسة Hadrumitum ، ولمطة

Loptis minor ، ورأس ديماس Thapsus وأشولة Achulla ، وتودالوس Thudalus ، وأوسلة Uzelis الواقعة خلف خليج بنزرت .

اما مملكة نوميديا ، فقد اشرف سيبيوس الايميلي على ترتيب اوضاعها ابان الحرب ـ كما سبق تفصيله في الفصل الاول من هذا البحث ـ بحيث لم يبق لساسة هذه المملكة بد من ان يقروا التطورات الجديدة التي حدثت في منطقة اعدائهم القرطاجيين ، وان يعترفوا بالامر الواقع الناتج عن الحرب ، بعد ان كان سلفهم ماسنيسا يطمع في الحصول على مكاسب اقليمية اكثر مما حصل عليه قبل اندلاع الحرب .

وعمل مسيبسا ، الذي جمع سلطات المملكة في يده بعد وفاة أخويه ، على توطيد العلاقات مع الحكام الرومان في الولاية الافريقية ، كي يطمئن على استقرار الحدود بينه وبين هذه الولاية ، وحتى لا تتوغل هذه الحدود نحو الغرب والجنوب على حساب مملكته .

أما الرومان ، فوجودهم بجوار المملكة النوميدية ، جعلهم ينظرون الى الوضع الجديد نظرة جديدة ، تتماشى وسياسة التدرج في الاحتلال ، أي أنهم رحبوا برغبة مسيبسا في اقامة علاقة متينة من الصداقة القائمة على التحالف القديم الذي ربطه ابوه مع الرومان ، وهذا النوع من العلاقات كان يمثل في نظرهم أفضل وسيلة لتمهيد المنطقة النوميدية الى مرحلة ضم مقبلة . واقتضت هذه الابعاد من الرومان ، أن يسلكوا سياسة تقوم على أمرين هامين : أولهما ، تجنب الصدام بالزعماء المغاربة في نوميديا ، حتى لا تثار الحساسية الوطنية لديهم فيكونوا مصدر شغب مزمن تجاه الرومان ، هذا من جهة ، والعمل على التقرب منهم ، ومحاولة إثارتهم ضد بعضهم ، والتظاهر بمظهر الحكم العادل في القضايا الناشبة فيما بينهم ، من أجل تمزيق الوحدة المغربية ، وتدعيم الهيبة الرومانية لدى الاوساط المغربية من جهة اخرى . كما اقتضت سياسة التدرج الرومانية فتح أبواب نوميديا على مصراعيها امام حركة اقتصادية رومانية واسعة ، يقوم بها التجار

ورجال الاعمال في مختلف ميادين الاستثمارات الاقتصادية ، وهي حركة من شأنها أن تعمل على ربط الاقتصاد المغربي بالاقتصاد الروماني ، والسيطرة عليه تدريجيا . بالاضافة الى غرس الجاليات الرومانية في المدن المغربية ، لتعمل على تمهيد المناخ الاجتماعي والسياسي والاقتصادي لما يتخذ من خطوات مقبلة في صالح سياسة « الرومنة » .

وفي هذا المجال ، تذكر المصادر المختلفة ان عددا كبيرا من الرومان استوطنوا المدن الهامة في كل من الولاية الافريقية ومملكة نوميديا على السواء . وقد عرفت الجالية الرومانية والايطالية ، في المنطقة المغربية بنشاطها السياسي الى جانب أنشطتها الاقتصادية ، ويتجلى هذا النشاط في موقف تجار سيرتا من الاحداث التي اعقبت وفاة مسيبسا والخلاف الذي نشب بين ورثة الحكم بعده ، حيث كان لاولئك التجار دور ملحوظ في تصعيد حدة الخلاف ، ودفع الرومان الى التدخل عسكريا في القضية ، وهو دور مشابه للذي لعبه التجار الرومان في طنجة Tingis عاصمة بوغود Baugod بعد ذلك ، أي خلال الصراع الناشب بين أتباع اوكتافيوس Octavius ، وانطونيوس Antonius ، وانضمام بوغود ملك موريطانيا الغربية الى صف هذا الاخير ، ويجدر التذكير بأن مدينة طنجة كانت تضج آنذاك بالتجار الرومان والايطاليين والاسبان . وقد نشط هؤلاء التجار في إثارة سكان المدينة ضد ملكهم بوغود ، فاغلقوا ابواب المدينة في وجهه عندما عاد من اسبانيا . الامر الذي اضطره الى العودة من حيث أتى ، متخليا عن المملكة الى خصمه بوكوس الثاني Bocchus II حليف اوكتافيوس .

وبخصوص الحدود النوميدية ـ الموريطانية ، يبدو انه لم يطرأ عليها تغيير عقب سقوط الدولة القرطاجية ، مما يشير الى حياد مملكة موريطانيا وعدم تدخلها لجانب أو لآخر . ومن ثم فان آثار التغييرات الجديدة لم يكن لها انعكاس على الوضع النوميدي ـ الموريطاني . وهذا الاستنتاج كان من سكوت المصادر عما يكون قد حدث من جديد في العلاقات بين

المملكتين ، نتيجة سقوط الدولة القرطاجية ، وهو سكوت شمل حتى الانطباعات التي تكون قد سجلت في المملكة الموريطانية عقب تدمير قرطاجة ، ومن ثم فنحن لا نعلم اذا كانت تلك الاحداث قد قوبلت بارتياح أم باستياء من طرف موريطانيا .

وهناك سكوت مماثل لوحظ في المصادر القديمة حول قضية الحدود بين نوميديا والولاية الافريقية ، حيث ان هذه الولاية كانت محاطة بتراب المملكة من جميع الجهات البرية ، أي من خليج قابس الى طبراقة ، وهذه الوضعية كانت موجودة منذ العهد القرطاجي . فنحن لا نعلم اذا كان الرومان قد ادخلوا تغييرات على الحدود التي كانت موجودة قبل سقوط قرطاجة في أيديهم ، والارجح انهم لم يفعلوا ذلك ترضية لحلفائهم النوميديين الذين ضحوا كثيرا من اجل مد حدود المملكة شرقا على حساب جيرانهم القرطاجيين .

ولعل إبقاء الرومان على مملكة نوميديا في ذلك الوضع الذي تركها عليه ماسنيسا يفسر التحفظ الذي اتصفت به سياسة مجلس الشيوخ تجاه ضم اراضي الاحلاف ، وانشاء الولايات النائية عن روما ، وهو تحفظ أملته التخوفات التي كانت تساور المجلس من القبائل المغربية المتوطنة على حدود الولاية الرومانية ، ومنها قبائل الجيتول Getules (جدالة ؟) التي كانت مضاربها تطوق الولاية من الجهة الجنوبية الغربية ، الامر الذي يكون قد أوحى الى الرومان بضرورة ابقاء المناطق التي تستوطنها تلك القبائل المهابة الجانب ضمن مملكة نوميديا ، تجنبا لخروجها عن الرومان في حالة ضمها الى الولاية .

والظاهر أن سبيون الايميلي قد عبر عن خوفه من تلك القبائل المتعودة على الحرية ، بان ضرب بينها وبين الولاية بخندق حتى لا تجتاح أراضي الولاية ، وتهدد أمنها بين الحين والآخر[16] .

يبدو الاحتلال الروماني من خلال هذه الاجراءات الوقائية ، وكأنه احتلال محدود[17] ، أفضت اليه الحرب المحتمة بين الرومان والقرطاجيين ،

ولما كانت نتيجة هذه الحرب ازالة الكيان القرطاجي ، وجد الرومان انفسهم امام إرث اقليمي ، ليس في صالحهم ان يتخلوا عنه الى مملكة نوميديا التي دأبت على العمل من اجل الظفر به منذ سنين . ثم ان الرومان لو تخلوا عن اقليم قرطاجة لحليفتهم نوميديا ، لكان ذلك إشراكا منهم لهذه المملكة في غنيمة الحرب ، وهذا أمر يخالف أهدافهم البعيدة ويتعارض مع سياستهم التوسعية العامة التي قادتهم الى شن حرب إبادة على قرطاجة والاصرار على ازالتها من الوجود[14] .

ويعتقد بعض المؤرخين ان القضاء على قرطاجة كان نتيجة حتمية لتخوفات الرومان من التوسع النوميدي المتزايد على حساب التراب القرطاجي ، حيث كان يظهر لساسة روما ان أسهل وسيلة ناجحة ، تمكن الرومان من الابقاء على قرطاجة تحت سيطرتهم ، هي تهديم قرطاجة[15] .

ويظهر اخيرا ، أنه بقدر ما عز على الرومان ان يتخلوا عن تراب قرطاجة للنوميديين ، بقدر ما كانوا يخشون التمادي في ضم الاقاليم المغربية الواقعة خارج الحدود القرطاجية التي ورثوها ، وذلك تجنبا لاثارة المغاربة ضدهم وسيرا على مبدأ التدرج في الاحتلال الذي درجوا عليه .

3 ـ آثار الصراع السياسي الروماني على بلاد المغرب .

كانت بلاد المغرب من أبرز المناطق التي تعرضت لنماذج متنوعة من أوجه السياسة الرومانية الممهدة للاحتلال ، فالتحالف الذي كان يمثل اولى خطوات الرومان نحو فرض سيطرتهم على بلاد الاحلاف ، قد نجح مجلس الشيوخ في استغلال ميزاته مع الملوك المغاربة منذ عهد مبكر ، حيث كان التحالف اقوى سند للديبلوماسية الرومانية في القضاء على القرطاجيين . كما كان هذا التحالف اقوى العوامل التي سهلت على الرومان تهيئة الجو المغربي سياسيا واقتصاديا واجتماعيا لتوسيع النفوذ الروماني في البلاد باقل التكاليف الممكنة .

ونتيجة لهذا الاسلوب الروماني في العلاقات بين الدولة الرومانية وبلاد المغرب ، كانت هذه الاخيرة معرضة لآثار التقلبات السياسية

الرومانية تعرضا مباشرا . كما كانت تقحم في الصراع الحزبي الروماني وتتحمل النتائج السلبية لذلك الصراع .

وعلى الرغم من أن محاولات تحررية عديدة قام بها المغاربة خلال الهزات السياسية الرومانية ، فان الرومان كانوا يتجنبون خطر هذه المحاولات ، ويفوتون على اصحابها فرص النجاح . ولعل أبرز الثورات الوطنية التي انتهزت فرص الازمات السياسية الرومانية للقيام بحركة تحررية ، ثورة الامير النوميدي حيرباص Herbaces [20] الذي استغل الخلاف الناشب بين ماريوس وسيلا ، وثار معلنا وقوفه الى جانب ماريوس ، وتمكنت حركته من انتزاع السلطة من خصومه المؤيدين لاتباع بومبي Cn. Pompeius غير ان الثائر حيرباص ما لبث ان اخفق في حركته ، حيث اسر من طرف القائد سيلا الذي حمل عليه من الولاية الرومانية عام 80 ق . م ، وارجع الوضع الى ما كان عليه سابقا ، بان اعاد المملكة النوميدية الى ماسنيسا وهيمسال الثانيين [21] .

ويوجد لقضية حيرباص شبه واضح في حركة الملك يوبا الاول ابان الصراع بين قيصر César وبومبي ، في منتصف القرن الاول قبل الميلاد . غير أن حركة الملك النوميدي يوبا الاول كانت أقوى وأعمق من حركة سلفه حيرباص ، نظرا للدور الذي لعبه يوبا في تلك الاحداث ، والنتائج الحاسمة التي ترتبت عن تلك الاحداث في بلاد المغرب عموما . ويظهر ان جسامة تلك الاحداث وخطورة النتائج التي تمخضت عنها ، ترجع الى ابعاد الازمة السياسية الرومانية ، والى الانقسامات العميقة التي أحدثتها تلك الازمة في أوساط مجلس الشيوخ الروماني الذي عجز عن مقاومة التيار الشعبي Populates الجارف .

ومجمل القضية أن الملك يوبا الاول عاهل نوميديا قد انحاز الى الحزب الارستقراطي Optimates وربط مصيره بزعمائه في ولاية افريقيا ، وكانت النتيجة أن لقي مصيرا مؤلما على يد يوليوس قيصر ، حينما انتصر على اعدائه في الولاية عام 46 قبل الميلاد .

ويبدو ان الملك النوميدي ، قد اختار هذا الموقف دون سواه لاسباب ذات أبعاد وطنية . منها انه كان على علم بخفايا سياسة قيصر التوسعية [22] ، وانه كان يتوقع اجراءات لضم اقاليم مغربية في حالة انتصار القيصريين على البومبيين . فاختار ان يعمل على ابعاد الخطر عن مملكته ، بالانضمام الى الحزب المناهض لقيصر .

وكان ممثلو هذه المناهضة في ولاية افريقيا قد نشطوا كثيرا في تهيئة الجو المغربي لمقاومة قيصر . ومن المغريات التي يذكر المؤرخون ان حاكم افريقيا قد عرضها على الملك النوميدي يوبا الاول ، هي أن ذلك الحاكم ، الذي يدعى فاروس Varrus ، قد أعطى وعدا للملك ، يتمثل في تنازل الرومان له عن الاراضي التي يحتلونها في افريقيا اذا ما وقف الى جانب مجلس الشيوخ المناهض لقيصر ، وجند طاقات المملكة لمقاومة حملة قيصر [23] . ومن مظاهر النشاط السياسي الذي كان يقوم به أعداء قيصر في افريقيا انهم التجأوا الى اسلوب دعائي لاستمالة النوميديين ، من ذلك أنهم أقدموا عام 49 ق . م . على ضرب نقود تحمل صورة الملك يوبا الاول والالهة الافريقية [24] . ويبدو ان هذه اللفتة اعلامية محضة ، وذات ابعاد سياسية تستهدف دفع النوميديين لان يلقوا بثقلهم في ميدان الصراع الحزبي الروماني الى جانب الاستقراطية ، خاصة وان النوميديين كان يحدوهم الامل في الخلاص من السيطرة الرومانية ، وتدفعهم الرغبة في انتهاز الفرص واستغلال الانقسامات السياسية الرومانية لتحقيق تلك الاماني الوطنية .

غير أنه ينبغي لفت الانتباه الى العلاقة التي كانت تربط الاستقراطية الرومانيه بالقادة النوميديين ، وهي علاقة كان يوطرها ممثلو الاستقراطية الرومانية من وكلاء ورجال أعمال وتجار ، كانوا يمارسون نشاطهم في مملكة نوميديا ، مثلما كانوا يفعلون في الولاية الرومانية ، والذي يبعث على هذا الاعتقاد في الترابط المصلحي بين الجانبين ، أن المملكة كانت لا تمنع تلك الفئة النشيطة من حرية النشاط والحركة عبر مدنها ومراكزها التجارية . ثم أن حكام الولاية كانوا يسهرون على حماية تلك النشاطات ،

ودعمها بما كانوا يوفرون لها من الظروف الملائمة في كل من الولاية والمملكة النوميدية على السواء .

والظاهر أن ملوك نوميديا ألفوا هذه العلاقة لكونها تجنبت المساس بكيانهم السياسي ، فضلا عن تحفظ الحزب الارستقراطي في توسيع حدود الولاية الرومانية على حساب مملكة نوميديا ، ومعارضته لسياسة لاستيطان في افريقيا ، هذه السياسة التي كان يتضمنها برنامج الحزب الشعبي الذي يتزعمه قيصر .

إن هذه المعطيات السياسية كفيلة بجعل العاهل النوميدي يشعر بعدم الارتياح لنجاح الحركة الشعبية على يد قيصر في روما . وقبل ان يتسع مجال تلك الحركة الى افريقيا ، كان ممثلوا الارستقراطية قد مهدوا الجو وزينوا للملك الانضمام اليهم ، وتجنيد امكانيات المملكة للدفاع عن الارستقراطية التي عزمت على مقاومة قيصر في افريقيا حتى النهاية .

ورغم تعذر الحصول على الاسانيد التاريخية الكافية لتفسير الدوافع الحقيقية التي جعلت الملك النوميدي يختار ذلك الموقف دون سواه ، فان تلك الحوادث لا يمكن ان يقف المغاربة حيالها على الحياد ، لانهم كانوا يشعرون ان منطقتهم ستكون عرضة لما سوف يترتب عن تلك الاحداث من نتائج ، ويظهر ان اختيار يوبا الاول لذلك الموقف قائم على بديهية « اهون الشرين » ، لان اخطار الحزب الشعبي المتمثلة في سياسة التوسع الاقليمي والاستيطان البشري للاقاليم المفتوحة ، كانت تظهر للملك أشد وطأة على البلاد من اهداف الحزب الارستقراطي المحافظ .

وضمن هذا التفسير ، يمكن ادراج المقاومة التي ابداها النوميديون ضد قيصر في اطار النشاط الوطني التحرري ، رغم النتائج السيئة التي ترتبت عن تلك الاحداث والمواقف .

غير أن موقف الملك الموريطاني بوكوس الثاني من تلك الاحداث كان مخيبا للامال الوطنية في التحرر ، بل كان عاملا من العوامل العديدة التي ساعدت الرومان على انهاء الكيان النوميدي .

والظاهر ان سبب وقوف بوكوس هذا الى جانب قيصر . يعود الى خوفه من استئثار يوبا الاول بالممتلكات التي وعده بها حكام الولاية الافريقية ، دون ان يكون لمملكة موريطانيا نصيب في تلك الممتلكات — التي ساهم بوكوس الاول في الدفاع عنها بطريقة غير مباشرة عندما تخلى عن يوغرطه — ، ويظهر كذلك ان بوكوس الثاني كان يرى نفسه معنيا بالاحداث الجارية في شرقي نوميديا ، نظرا للعلاقة المتينة التي كانت تربط مملكته موريطانيا بالولاية الرومانية ، وهي علاقة كان سلفه بوكوس الاول قد وضع أسسها الاولى بموقفه المشهور من حرب يوغرطة ضد الرومان . يضاف الى ما تقدم ان قيصر كان يبحث لنفسه عن حليف وراء اعدائه اتباع بومبي وحليفهم الملك يوبا الاول ، ولو كلفه هذا الحليف الذي يبحث عنه تضحية اقليمية في نوميديا ، ثمنا لدوره في الاحراز على النصر . ولم يكن غير بوكوس الثاني اهلا لهذه المهمة في نظر قيصر ، لذلك عمل على استمالته .

والظاهر أن الماضي كان ماثلا امام عيني بوكوس بنتائجه الايجابية لصالح المملكة ، فأراد هو الاخر ان يستفيد من تجربة سلفه بوكوس الاول في الحصول على نتائج اكثر لصالح مملكته على حساب نوميديا .

ولا يستبعد ان يكون قيصر قد استند الى عنصر روماني لدى الملك الموريطاني بوكوس لتشجيعه على اقتحام الصراع الروماني الى جانب اتباع قيصر[25] ، ويتمثل ذلك العنصر الروماني في جماعة المرتزقة الايطاليين الموجودين في موريطانيا تحت رئاسة المغامر الروماني سيتيوس Sittius[26] . ذلك ان هؤلاء المرتزقة المحترفين قد وجدوا الظروف مناسبة لان يقدموا خدماتهم المشروطة لبني جلدتهم ، رغبة في الحصول على مكافآت سخية من قيصر .

ويبدو أن هذا الاخير لم يتردد في الترحيب بهم والاستفادة من تجاربهم العسكرية ، وقبول شروطهم المتمثلة في منحهم اراضي نوميدية يستقرون بها .

اما نتائج تلك الاحداث على بلاد المغرب ، فقد رسمت خطوطها العامة فكرة قيصر التي اقتضت ان يقتحم جيش الملك بوكوس الثاني ومرتزقة سيتيوس مملكة نوميديا من الخلف ، بصفة مفاجئة تحدث ارتباكا في النوميديين ، وتنال من معنوياتهم ، ومن ثم يرغم الملك يوبا على التخلي عن حلفائه اتباع بومبي ليدافع عن مملكته المهاجمة .

وأفلحت الخطة ، وانسحب يوبا من الجبهة الشرقية ، حيث كان يحاصر جيش قيصر ، وأسرع لصد هجمات بوكوس وسيتيوس التي نالت من المملكة ، فأحدث انسحاب النوميديين تصدعا في صفوف اتباع بومبي ، واستطاع قيصر ان يلحق بهم الهزيمة الشهيرة في معركة تابسوس Thapsus (رأس ديماس) ، في حين كان الوقت قد فات يوبا كي ينقذ مملكته من بوكوس وسيتيوس ، فخسر كل شيء مما دفع به الى الانتحار .

وهكذا توفرت مجموعة عوامل ، دفعت الملكين المغربيين ، بوكوس ويوبا ، الى اتخاذ موقفين متناقضين ، اديا الى ذلك المصير السيء ، نتيجة الانقسام والاقتتال بدل الاتحاد والثورة على الوجود الروماني ، الذي كانت الثورة الوطنية المتلاحمة تمثل أبلغ خطر عليه في تلك الظروف الصعبة .

4 ـ سياسة قيصر في افريقيا .

يعتبر انتصار قيصر في الحرب الافريقية Bellum Africum من الاحداث الحاسمة التي ترتبت عليها نتائج كبرى ، لا بالنظر للتغيرات التي احدثها ذلك الانتصار في الحياة السياسية والاقتصادية الرومانية فحسب ، ولكن اعتبارا لما نتج عن ذلك الانتصار من تغييرات جوهرية بالنسبة لبلاد المغرب خاصة . وأبرز تلك التغييرات ، يمكن اختصارها في النقاط التالية :

1 ـ الغاء مملكة نوميديا نهائيا ، واعلانها ولاية رومانية جديدة ، سميت بافريقيا الجديدة Africa Nova ، تمييزا لها عن ولاية افريقيا القديمة التي اصبحت تدعى منذ ذلك بافريقيا القديمة Africa Vitus

وقد تم ذلك الاجراء من طرف قيصر عام 46 ق . م . عقب هلاك الملك يوبا الاول ، وهزيمة حلفائه من أنصار بومبي على يد قيصر .

يشير القضاء على نوميديا في ذلك العام ، الى أن مرحلة التمهيد التي استغرقت قرنا من الزمن (146 ـ 46 ق . م) : كانت في نظر قيصر كافية لان تختتم باتخاذ ذلك القرار الحاسم . وكأن قيصر أراد بتلك المصادفة التاريخية ان يحتفل بالعيد المئوي للانتصار الروماني على القرطاجيين ، بان أضاف مكسبا اقليميا جديدا الى المكاسب الرومانية القديمة ، مساهمة منه في توسيع الامبراطورية الرومانية على حساب الشعوب المجاورة .

ومن جهة أخرى ، طوى قيصر بهذا الانجاز مرحلة من اهم مراحل التوغل الروماني في المنطقة المغربية ، مخالفا بذلك سنة ماريوس الذي اكتفى بحمل قائد الثورة الوطنية يوغرطة مغللا الى مجلس الشيوخ ، ولم يمدد حدود الاراضي الرومانية في افريقيا على حساب التراب النوميدي . كما برهن قيصر على اخلاصه لمبدأ حزبه الشعبي التوسعي ، اذ يعد انشاء الولاية الرومانية الجديدة في تراب نوميديا من الاهداف التي يرجع تحقيقها بالنفع على ذلك الحزب[27] .

2 ـ منح الجزء الشمالي الغربي من مملكة نوميديا الى مرتزقة سيتيوس ، الذين أقاموا فيه إمارة ، عرفت باسمهم ، وهي أشبه بكونفيديرالية تجمع عدة مدن استولى عليها اولئك المرتزقة ، بعد أن أطلق قيصر أيديهم في البلاد ، واتخذوا من سيرتا العاصمة التقليدية لمملكة نوميديا ، عاصمة لتلك الكونفيديرالية التي تضم مدنا مشهورة كالقل Chullu ، وسكيكدة Rusicade ، وميلة Milev بالاضافة الى سيرتا العاصمة . واخذ النشاط العسكري لأولئك المرتزقة يتزايد للاستيلاء على الاراضي الزراعية المجاورة لتلك المدن ، وراحوا يؤسسون فيها المستعمرات لاستغلالها زراعيا .

وواضح ان لهذه الاجراءات القيصرية في شمال الولاية الجديدة أبعادا خطيرة على مستقبل المنطقة . ذلك ان منح تلك المنطقة للمرتزقة ، يعد عملا وقائيا يحمي ظهر الولاية من طموح بوكوس الثاني . اذ يبدو أن قيصر لم يكن يطمئن الى حلفائه المغاربة اتعاظا باحداث يوغرطة ويوبا الاول (28) . فجماعة سيتيوس كان يرى فيهم قيصر انسب قوة بشرية تستطيع أن تستوطن تلك المنطقة ، وتدافع عنها ، نظرا لرغبة جماعة سيتيوس في الاستقرار ، بعد حياة طويلة قضوها في التنقل باسبانيا وموريطانيا ، معتمدين في حياتهم على تاجير انفسهم لمن يحتاج اليهم من ذوي النفوذ السياسي ، فضلا عما كانوا يتصفون به من صلابة عود ، نتيجة ممارستهم الطويلة للنشاط العسكري بحكم وظيفتهم كمرتزقة حروب ، زيادة على معرفتهم بالمنطقة وسكانها الذين اقاموا بينهم طويلا . ثم انه ليس بمستبعد على قيصر أن يدرك ، بما له من بعد نظر ، ان هؤلاء المرتزقة سوف يستميتون في الدفاع عن تلك المنطقة التي حصلوا عليها كغنيمة حرب ، فهي مكسب ثمين بالنسبة اليهم ، لان وجودهم سيرتبط بها ، لكونهم لا يملكون ارضا غيرها ، ولا يشدهم أي وطن آخر اليه غير هذا الذي انتزعوه من اهله بحد السيف ، ومن ثم فاولئك المرتزقة كانوا يظهرون لقيصر افضل من يستطيع تمهيد تلك المنطقة الجبلية المستعصية المسالك لمستقبلها الروماني .

وكان ان شرع جماعة سيتيوس في اقامة المستعمرات الفلاحية بمنطقة سيرتا فور حصولهم عليها ، كما استولوا على المدن والقرى الواقعة شمالي سيرتا الى سواحل البحر ، وحولوها الى مستوطنات رومانية بمساعدة الجاليات الرومانية واللاتينية المقيمة هناك منذ عهد بعيد . وبهذه النشاطات الاستعمارية مهد مرتزقة سيتيوس لمرحلة الاستيطان الواسعة النطاق التي نشطت بعدهم في نوميديا وموريطانيا ، وخاصة في عهد اوكتافيوس اوغسطس . أي ان ابعاد سياسة قيصر كانت عميقة الاثر . ولعل تلك الابعاد قد كشفت عن نفسها عندما انضمت امارة سيتيوس الى الولاية الرومانية إثر مقتل زعيم المرتزقة سيتيوس على يد الثورة النوميدية بقيادة

ارابيون Arabion وعلى الرغم من أن هذا الضم قد تم بعد مقتل قيصر ، وتجميد مشاريعه نسبيا ، الا أنه لا يمنع من استنتاج الحقيقة التالية ، وهي ان جماعة المرتزقة أدوا خدمة كبيرة لسياسة الاستيطان الرومانية في بلاد نوميديا ، فضلا عن انهم مهدوا تلك المنطقة لذلك الضم التلقائي (29) .

3 ـ نقل منطقة التحالف غربا ، الى موريطانيا ، كنتيجة منطقية لسياسة التدرج في توسيع الممتلكات الرومانية ببلاد المغرب . أي ان قيصر جمع ثقة الرومان في الملك الموريطاني بوكوس الذي برهن لقيصر عن جدارته بهذه الثقة ، بالمشاركة الايجابية التي قام بها في الحرب لصالح قيصر ، ودعم قيصر ذلك التحالف بمنح بوكوس الشطر الغربي من نوميديا ، كي يوسع هذا مملكته الى الوادي الكبير شرقا . فاصبحت بذلك الامتداد تجاور مقاطعة المرتزقة والولاية الرومانية الجديدة .

ولعل قيصر لم يختر هذا التقسيم اعتباطا . اذ أنه كما حصل على وقاية الولاية من الخطر الوطني بغرسه جماعة سيتيوس في المناطق الصعبة ، لا يستبعد ان يكون قد راعى في منح المكافأة الاقليمية لبوكوس ما يتفق والمصالح الرومانية . فالمناطق الجبلية الواقعة غربي الوادي الكبير ، ومنطقة السهول العليا من سطيف Sitifis الى حدود المملكة الموريطانية سابقا ، كانت من المناطق التي لا يطمئن الرومـان الى سكانها ، بدليل ان تلك المناطق ما لبث سكانها ان هبوا لداعي الواجب الوطني الذي ردده ارابيون . ثم انه رغم سكوت المصادر عن الاحداث الوطنية التي تخللت الحرب الافريقية في تلك المنطقة ، فان سكانها لا يستبعد ان يكونوا قد ابدوا مقاومة لحملتي بوكوس ومرتزقة سيتيوس على تلك المنطقة ، عندما كان الملك يوبا الاول يعسكر في الولاية الافريقية لوقف تقدم قيصر .

والظاهر ان قيصر كان لا يجهل الانطباعات السيئة التي كان يحملها سكان تلك المنطقة ضد الرومان ، ومن ثم رأى من الافيد أن يمنح تلك

المنطقة الى الملك بوكوس تجنبا للشغب الذي قد يحدثه سكانها في وجه الرومان ، وبذلك يكون قيصر قد كافأ حليفه بوكوس على موقفه أزاء الحزب القيصري من جهة ، وجنب الرومان عناء إخماد الثورة النوميدية المتوقعة . ولعل قيصر كان يقول في قرارة نفسه – يوم قرر تلك المكافأة على تلك الصورة – لكي يكفينا بوكوس شر اخوانه ...؟

5 – محاولة ارابيون ، ونهاية الكيان الوطني :

لم ييأس المغاربة من الانتصار ، ولم تنل الهزائم من عزائمهم الوطنية ، وظلت روح النضال تدفعهم الى المزيد من المحاولات ، وتكرار التجارب من أجل ايقاف المد الروماني في بلادهم ، وواتتهم فرصة أخرى من فرص التصدع السياسي الذي كان يعتري السلطة الرومانية من حين لآخر ، وهي الاحداث التي اعقبت مقتل قيصر عام 44 ق . م ، وكان العنصر المغربي النشيط في تلك الفرصة ، يتمثل في أمير نوميدي ثائر يدعى ارابيون ، ARAbion وهو ابن لماسنيسا الثاني [30] . استغل هذا الامير تنازع حاكمي الولايتين الافريقيتين القديمة Africa vitus والجديدة Africa nova على تجميع سلطة الولايتين في يد احدهما ، وكانت حاجة كل منهما الى النوميديين كبيرة من اجل الانتصار على الخصم .

كانت بداية المحاولة النوميديه للتحرر في هذه المرة عندما طلب سيكتيوس Sextius ، حاكم افريقيا الجديدة ، يد المساعدة من الامير النوميدي ارابيون ، وكان مجلس الشيوخ قد جرده من مهامه كحاكم للولاية الجديدة ، لانه أعلن انضمامه الى الحكم الثلاثي Triumvirat المناهض لمجلس الشيوخ ، وتحتم على سيكتيوس حاكم الولاية المذكورة أن يدافع عن منصبه ضد حاكم الولاية القديمة كورنيفيسيوس Q. Cornificius الموالي لمجلس الشيوخ ، والذي أخذ يعمل على توحيد الولايتين تحت حكمه بأمر من مجلس الشيوخ .

تحرك الامير أرابيون بسرعة لخوض غمار الحرب الى جانب الحاكم سيكتيوس Sextius ، والتفت حوله جموع الفرسان النوميديين . وركز نشاطه العسكري ضد امارة المرتزقة التابعين لسيتيوس ، لانه كان يتقد حقدا على هؤلاء الذين انغرسوا في أرض اجداده ، واطاحوا بمملكة نوميديا . وتمكن من القضاء على رأس المرتزقة سيتيوس في احدى المعارك الطاحنة ، وابعد المعمرين السيتيان (مرتزقة سيتيوس) عن منطقة سيرتا . كما استطاع الثوار النوميديون بقيادة ارابيون ان يزيحوا جيش بوكوس عن الجزء الغربي من مملكة نوميديا القديمة ، فأحيا ارابيون بهذه الانتصارات السريعة كيان نوميديا الغربية .

غير انه يبدو ان تلك الانتصارات قد اثارت تخوفات حليفه سيكتيوس ، الذي اتضح له أن ارابيون قد اصبح قوة لا يستهان بها ، وان وطنيته قد تدفع به الى الانقلاب ضده بعد أن يمتن اركان المملكة التي أحياها ، وتأكد سيكتيوس من نوايا ارابيون الوطنية المناهضة للوجود الروماني ككل ، من خلال اعماله السالفة .

لذلك قرر سيكتيوس ان يضع حدا لنشاط هذا الامير النوميدي قبل ان يستعصى أمره ، فأوعز باغتياله مدعيا انه اشتبه في أمره ، وانه تأكد من تعامله مع عدوه فانغون Fangon حاكم افريقيا الجديدة الجديد [31] .

وقد اتخذ المؤرخون من هذا الادعاء سببا وحيدا لعملية اغتيال الامير النوميدي من طرف سيكستيوس ، وبرروا ذلك الاغتيال على انه جزاء شرعي . والمؤسف في القضية ان المؤرخين لم يحاولوا تحليل الاحداث بعمق اكثر ، والنظر الى المساهمة النوميدية في تلك الاحداث من زاوية وطنية ، وفهم الموقف النوميدي في مثل تلك الاحداث الرومانية ، على انه ظاهرة وطنية تحررية [32] .

ويبدو ان هذه الظاهرة الوطنية يوجد ما يفسرها في الاحداث التي اعقبت اغتيال الامير ارابيون ، فقد شن سيكتيوس حربا سريعة على عدوه

فانغون ، وتمكن من القضاء عليه ، وتابع هجوماته ضد الثوار النوميديين من اتباع ارابيون الذين قاوموه باستماتة ، وتمت له السيطرة على الولايتين معا ، وعلى نوميديا كذلك ، واعاد المرتزقة الى اقطاعياتهم بمنطقة سيرتا ، وادخلهم تحت حماية الولاية . كما ارجع القسم الغربي من نوميديا الى مملكة موريطانيا .

ويتضح من هذه النتائج التي اسفرت عنها الاحداث ، ان ابعاد عملية الاغتيال لم تكن بسبب شخص ارابيون المشتبه فيه ، وإنما كانت اغتيالا للحركة الوطنية التي حمل لواءها ذلك الامير النوميدي الجريء . فسيكتيوس كان حريصا جدا على الاحتفاظ بنتائج حملة قيصر على افريقيا ، وانه ما استعان بالنوميديين الا من اجل الكسب المزدوج لقضيته التي تمرد من اجلها على مجلس الشيوخ ، وهي تتمثل في الاحتفاظ بسلطته على افريقيا والمحافظة على اقصى مكاسب الرومان في هذه البلاد .

ومن جهة أخرى ، فان ما كان يحمله ارابيون من كراهية للقيصريين لا يستبعد ان يكون سببا من اسباب عدم ارتياحه للتقسيم الجديد للولايتين ، وهو التقسيم الذي تم بين القائدين اوكتافيوس Octavius ، وانطونيوس Antonius ، وحصل بمقتضاه اوكتافيوس القيصري النزعة على الولاية الجديدة المجاورة لمملكة ارابيون الناشئة ، فخشي هذا من النوايا التوسعية لاتباع قيصر ، وبذلك اعتراه الفتور تجاه الحاكم سيكستيوس ، مما حمل هذا على انتهاز الفرصة للقضاء عليه بدعوى الارتياب في أمره .

ويبدو من ناحية أخرى ان يد بوكوس الثاني لا تسلم من الاتهام بالتسلل في وضع الاحبولة التي خنقت مملكة ارابيون في المهد ، اذ أن الولاء الذي كان يحتفظ به بوكوس الثاني للقيصريين قد احتفظ به لزعيمهم الجديد اوكتافيوس كذلك ، وهو ما جعل موقفه مخالفا لموقف كل من ارابيون وبوغود ملك موريطانيا الغربية ، ثم ان ما حصل عليه بوكوس الثاني من مكاسب اقليمية في نوميديا وموريطانيا الغربية عقب اغتيال

ارابيون وطرد بوغود من مملكته[33] ، أمر لا يبرئ ساحة بوكوس الثاني من المساهمة في القضاء على ارابيون بطريقة أو بأخرى . ورغم كل الالتباسات التاريخية حول قضية الاغتيال هذه ، فان نتيجة تلك المحاولة النوميدية الثالثة كانت مخيبة للامال الوطنية ، وذلك بما انتهت اليه الاحداث من تغييرات جديدة لصالح الرومان ، حيث تم لهم تشتيت القوى الوطنية التي تزعمها الثائر ارابيون ، وجمعوا ثقتهم في حليف واحد اظهر لهم فعاليته بمواقفه المناهضة للنوميديين .

هوامش الفصل الثاني

1 ـ اندري ايمار وغيره ، تاريخ الحضارات العام . جزء 2 (ترجمة فريد داغر) . ص . 105 .

2 ـ ارنولد توينبي ، تاريخ الحضارة الهيلينية . تر . رمزي ع . جرجس . ص . 172 ـ 173 .

3 ـ Petit (P), Précis de l'histoire ancienne, P. 206

4 ـ Piganiol (A.), La conquête romaine P. 204.

5 ـ Bordet (M.), Précis de l'histoire romaine, P. 44.

6 ـ ارنولد توني . المصدر السابق ، ص . 172 ـ 173 .

7 ـ يبدو انه بقدر ما كان العنصر الاغريقي سببا في قيام نوع من العلاقات السلمية بين الرومان والقرطاجيين قبل نزاعهما ، بقدر ما كان هذا العنصر مساعدا على حدوث الصدام الساخن بين الطرفين ، وذلك عندما حاول اهل سيراكوزة من الاغريق ان يلعبوا على الحبلين . فابدوا رغبتهم في الاحتماء بقرطاجة عام 264 . ثم ما لبثوا ان انقلبوا الى صفوف الرومان . وهو ما شجع هؤلاء على مواصلة الحرب ضد القرطاجيين الى ان اجلوهم عن صقلية في الحرب البونية الاولى .

8 ـ Pigoniol (A.), La conquête romaine, P. 579.

9 ـ نفس المصدر ، ص . 179 .

10 ـ اندري ايمار وغيره ، المصدر السابق ، ص . 109 .

11 ـ يتجلى مفهوم الامن الروماني في اخضاع الشعوب المجاورة التي يمكن ان تقلق راحة الرومان ، أو تحد من توسعهم ، أو تنافسهم ، فسلام الرومان يعد معرضا للخطر كلما كانت هناك دولة مجاورة ، تملك من القوة ما يعادل قوتهم ، أو ثمة حلف قائم بين دول لا تكون روما طرفا فيه .

12 ـ اندري ايمار وغيره ، المصدر السابق ، ص . 109 .

13 ـ نفس المصدر ، ص . 110 .

14 ـ نفس المصدر ، ص . 110 .

15 ـ هشام الصفدي ، تاريخ الرومان . الجزء الاول ، ص . 147 .

16 ـ Gsell (St.), H.A.A.N., T: 7, P.8.

17 ـ Courtois (Ch.), Les vandales et l'Afrique , P. 67.

18 ـ Gsell (St.), H.A.A.N., T: 3, P. 330.

19 ـ نفس المصدر ، ص . 331 . (انظر الهامش كذلك) .

20 ـ حول حياة هذا الامير الغامضة . انظر : Gsell (St.), H.A.A.N., T: 7, P. 281.

21 ـ نفس المصدر ، وكذلك جوليان ، المصدر السابق ، ص . 163 .

22 ـ Albertini (E.), Marçais (G.), Pregent (E.), A.N.F.H., P. 57.

23 ـ Pigoniol (A.), La conquête romaine, P. 552.

24 ـ نفس المصدر ، ص . 552 .

25 ـ Walter (G.), César, P. 369.

يستبعد قزيل ان تكون لقيصر علاقة بسيتيوس ، بل يرى ان بوكوس هو الذي جر المرتزقة الى صفوف قيصر . لكن رواية ديون كاسيوس Dion cassius التي اعتمدها والتر Walter ، تخالف ما ذهب اليه قزيل . وبالنظر الى النتائج التي حصل عليها المرتزقة ثمنا لمشاركتهم الفعالة الى جانب قيصر ، يرجح ان يكون رأي قزيل مجانبا للصواب ، انظر :

Gsell (St.), H.A.A.N., T: 8, P. 56.

26 ـ هو سيتيوس بوبليوس نوسارينوس Sitius publius Nucerinus . ولد في كمبانيا وعاش في روما . ركبته ديون كثيرة فهرب الى اسبانيا ومنها الى موريطانيا على رأس جماعة من المرتزقة الايطاليين . وظل في المملكة الموريطانية يؤجر رجاله الى الملك بوكوس من عام 64 الى ان انضم الى قيصر .

27 ـ من اهداف هذا الحزب . ضم الاراضي الحليفة . والاستغلال الزراعي بواسطة الاستعمار الاستيطاني . وذلك لتحسين مستوى الطبقة الشعبية في روما . والتخفيف من وطأة العاطلين عن العمل فيها . انظر مزيدا من التفاصيل في : Albertini (E.), Marçais (G.), Pregent (E.), A.N.F.H. P. 55.

28 ـ Gsell (St.), H.A.A.N., T: 8, P. 158.

29 ـ Albertini (E.), Marçais (G.), Pregent (E.), A.N.F.H., P. 55.

30 ـ انتقل ارابيون الى اسبانيا مع انصار بومبي عقب انتصار قيصر عليهم .

31 ـ عين هذا الحاكم عام 43 من طرف الحكم الثلاثي Triumvirat الثاني . المؤلف من اوكتافيوس . وانطونيوس . وليبدوس . الا ان سيكتيوس رفض أن يسلمه مقاليد الولاية الجديدة . فنشب النزاع بين الحاكمين .

32 ـ Gsell (St.), H.A.A.N., T: , P. 196.

33 ـ نفس المصدر . ص . 200 .

الفصل الثالث

خصائص الادارة الرومانية في بلاد المغرب ودورها في سياسة الرومنة

لئن كان الاحتلال الروماني لبلاد المغرب ، قد اتسم بطابع التدرج البطيء والتروي الشديد ، فان الجهاز الاداري الذي وضعه الرومان لهذه البلاد ، قد اتصف هو الآخر بنوع من التدرج ، في تحويل الانظمة الادارية التي وجدوا عليها البلاد الى انظمة رومانية محضة . كما كانت السياسة الادارية الرومانية تتصف بالمرونة[1] التي تتطلبها التطورات السياسية والعسكرية في اطراف الامبراطورية ، وتقتضيها الاهداف العامة المتوخاة من الوجود الروماني في المنطقة المغربية ، وهي أهداف يمكن حصرها في العمل على تثبيت السيطرة الرومانية في البلاد ، وتهيئته النفسية المغربية لقبول الحضارة الرومانية بمختلف مظاهرها ، أي الاقبال على « الترومن » .. ويمكن ابراز بعض الاوجه للمرونة الادارية في الاساليب التالية :

1 ـ اللامركزية الادارية :

اقصد بهذه التسمية عدم تجميع السلطة الادارية لكافة المنطقة المغربية الخاضعة للرومان في مدينة معينة ، وتحت قيادة مسؤول روماني واحد ، واتباع سياسة تعتمد على تقسيم المنطقة الخاضعة الى وحدات ادارية (ولايات) مستقلة عن بعضها في السلطة ، وربط هذه الوحدات بالادارة المركزية في روما مباشرة .

وواضح أن تجزئة البلاد على هذا النحو ، يمكن حكامها من السيطرة عليها ، ويسهل عليهم مهمة عمليات الجباية المتنوعة ، واستحصال المنتوجات الزراعية وتصديرها الى روما ، فضلا عن أنهم يستطيعون أن يركزوا جهودهم لاخضاع العناصر الوطنية الثائرة على الوجود الروماني ، لان هذا التقسيم الاداري يخول للحكام المحليين سلطات واسعة لاتخاذ الاجراءات الرادعة السريعة دون اللجوء الى سلطة عليا في عاصمة بعيدة ، بالاضافة الى ان ضيق مساحة الولاية عامل يساعد على التحرك السريع ، والاطلاع عن كثب عما يجري في أطراف الاقاليم من تجمعات وطنية .

ثم انه لا يعسر ادراك المغزى العميق لهذا الاسلوب في حكم المنطقة المغربية ، فهو يوضح دهاء السلطة المركزية في روما ، وحذرها الشديد من ان تتعرض المصالح الرومانية للخطر في هذه المنطقة النائية ، سواء كان الخطر متوقعا من النشاط الوطني المناهض للرومان ، أو صادرا عن طموح الولاة الرومان أنفسهم في الاستئثار بالسلطة في البلاد المغربية الخاضعة للرومان ، حيث ان تقسيم هذه البلاد الى وحدات ادارية مستقلة عن بعضها يعني قطع الامل على الحكام الطموحين في التمرد[2] ضد السلطة المركزية التي يمثلها مجلس الشيوخ في روما ، كما يحرم الجاليات الرومانية والايطالية من الاستقلال بمقاطعة أو أخرى .

2 ـ المناطق المدنية والمناطق العسكرية :

صنف الرومان بلاد المغرب الى نوعين من الاقاليم الادارية ، تبعا لدرجة توغل النفوذ الروماني فيها ، ومدى خضوع السكان لهذا النفوذ .

فكان النوع الاول يشمل المنطقة الاكثر أمنا وهدوءا من الاقاليم التي مضى على احتلالها زمن طويل ، اصبح الخوف معه مستبعدا على قيام سلطة مدنية تمارس نشاطها في نطاق « الرومنة ». وقد وضعت الولايات المدنية تحت سلطة حاكم يتمتع بالعضوية في مجلس الشيوخ ، وكان اقليم قرطاجة يتمتع بهذا النوع من الحكم المدني ، ثم تبعه اقليم نوميديا الشرقية منذ اعلانه ولاية رومانية جديدة عام 46 ق . م . اما الاقاليم التي كانت ما تزال ميدانا لنشاط الحركات الوطنية المناهضة للاستعمار الروماني ، والتي تحتاج الى النشاط العسكري اكثر من التنظيم الاداري ، فقد كانت تعتبر مناطق عسكرية ، أو ولايات امبراطورية ، كما عرفت فيما بعد ، خلال العهد الامبراطوري ، يشرف على أمورها ضباط سامون يعينون من طرف الامبراطور مباشرة ، ويمارسون وظيفتهم بوحي منه ، ولا دخل لمجلس الشيوخ في تعيينهم ، أو تزويدهم بالتعليمات اللازمة لتسيير أمور البلاد الداخلة في حوزتهم .

ونلاحظ المساهمة التي قدمها هذا التقسيم لسياسة الرومنة ، في الغاء المناطق العسكرية وتعويضها بادارة مدنية ، بعد ان تستوفي المؤسسة العسكرية مهمتها ، أي عندما يسود الامن ويضعف النشاط الوطني في المناطق المأخوذة بعين الاعتبار .

ويبدو أن سياسة تقسيم البلاد الخاضعة الى مناطق عسكرية وأخرى مدنية ، ترجع الى عهد قيصر ، الذي يظهر أنه أول من وضع سنة لهذه السياسة الادارية ، التي توضحت في العهد الامبراطوري بجلاء . ولعل قيصر دشن عمليا هذه السياسة في اعلانه عن انشاء ولاية افريقيا الجديدة في تراب نوميديا ـ عقب انتصاره في الحرب الافريقية Bellum Africum [3] بدل ضمها الى الولاية الافريقية القديمة Africa vitus [4] لان نوميديا كانت تمثل منطقة غير امنة في نظر قيصر ، وأنه من الحكمة أن تظل معزولة عن الولاية القديمة التي قطعت فيها مشاريع الرومنة أشواطا ، وذلك حتى لا تتسرب اليها

العدوى الوطنية التي كان خلفاء يوبا الأول ينهضون بها في الولاية الجديدة وعلى حدودها الغربية[5] .

ومن جهة أخرى ، فان الولاية القديمة كانت لا تحظى بثقة قيصر الكاملة ، نظرا للموقف المعادي الذي اتخذته سلطتها المحلية وجالياتها الرومانية تجاه قيصر ابان حملته عليها[6] ، ورغم أن هذا الأخير قد عاقب اعدائه في الولاية بما يلائم دورهم في الأحداث[7] ، الا ان نظرة قيصر البعيدة ، لا يستبعد أن تكون سببا في اتخاذه موقف الحذر والارتياب تجاه اعدائه السابقين ، مهما ابدوا من مظاهر الولاء والتكفير عن الذنب ازاء السيد الجديد (قيصر) . ومن ثم كان فصل المقاطعتين أمرا ضروريا بالنسبة لقيصر ، حتى يقطع اسباب الاتصال بين المناهضين لحزبه من الرومان والمغاربة على السواء .

ويمكن أن نعتبر اختيار قيصر لسالوست ـ لأن يكون على رأس الولاية الجديدة[8] ـ دليلا يدعم خطة قيصر الجديدة في افريقيا ، نظرا لما كان يتصف به سالوست من عداء شديد لاتباع بومبي ونبلاء مجلس الشيوخ ، ودفاعه المخلص عن الحزب القيصري[9] ومساهمته في حملة قيصر على افريقيا . فقد كان سالوست بالنسبة لقيصر انسب شخصية يمكن ان توضع على رأس الولاية الجديدة ، التي كانت مشاكل الامن والولاء للحزب القيصري فيها تستدعي حاكما مخلصا لقيصر .

ويلاحظ ، أن هذا العزل الاداري الوقائي قد زال تلقائيا عندما قفزت الحدود الرومانية الى ما وراء نوميديا غربا ، وذلك حينما تم القضاء على محاولات أرابيون الوطنية ، وثبتت اسس المستعمرات الاقطاعية التي كافأ بها قيصر رجال سيتيوس في نوميديا لتمارس دورها الكبير في « رومنة » المنطقة .

ويستنتج من هذا أن فكرة تصنيف البلاد المفتوحة الى مناطق عسكرية وأخرى مدنية ، فكرة قيصرية الأصل ، وان كان تطبيقها قد شاع أكثر في العهد الامبراطوري[15] . وان من أغراض تلك السياسة تجنب الاصطدام

بجيوب المقاومة الوطنية ، حتى لا يضيع زمام الأمور من يد الادارة المدنية ، التي ينبغي أن تتفرغ لمهمتها الاساسية المتمثلة في تنظيم اساليب الاستغلال الاقتصادي في المنطقة الخاضعة ، وتغيير الوجه الحضاري فيها . ذلك انه لكي تكون المؤسسة الادارية المدنية أكثر فعالية ، يجب أن تمهد لها المؤسسة العسكرية السبل الوعرة ، وتهيء لها الجو الملائم للغرس في ظروف أكثر اطمئنانا على البذور .

أما تطبيق هذه الاساليب الادارية على الواقع الجغرافي المغربي ، فقد تم على نحو مطابق للاهداف المرجوة من تلك الأساليب ، ويمكن تتبع آثار ذلك في مجموعة من الاجراءات والانجازات المدنية والعسكرية حققها الرومان في المرحلة الأولى من الاحتلال ، أي في منطقة قرطاجة ، ومقارنتها بما تم لهم من هذا القبيل في المراحل اللاحقة من الاحتلال ، أي في كل من نوميديا وموريطانيا .

3 ـ افريقيا البروقنصلية .

هي المنطقة التي ورثها الرومان عن القرطاجيين عام 146 ق . م ، وقد وضعوا لها نظاما اداريا مدنيا منذ البداية ، ويلاحظ أن النشاط العسكري في هذه الولاية كان قليلا .

قد يظهر لأول وهلة أن السبب في عدم مرور هذه المنطقة بمرحلة الحكم العسكري يرجع الى السياق العام الذي كانت تسير عليه السلطة المركزية للجمهورية الرومانية ، والى ما كان يتمتع به مجلس الشيوخ من النفوذ المطلق في المناطق الخاضعة للدولة آنذاك . الا أنه ينبغي الا يهمل جانبان ، يبدو أن لهما أهمية معتبرة في اكتفاء مجلس الشيوخ بوضع ادارة مدنية في افريقيا منذ البداية :

1 ـ ان الولاية الرومانيه في اقليم قرطاجة قد وضعت في منطقة كانت تتمتع بالادارة المدنية في العهد القرطاجي الذي ساهم في تعويد الناس على السلطة المدنية ، فاستفاد الرومان من التركة الادارية والحضارية التي خلفها القرطاجيون في تلك المنطقة[11] ، فلم يكن صعبا على حاكم الولاية

المدني أن يسيطر على الوضع في ذلك الاقليم . ثم أن الجو السياسي الذي ترتب عن سقوط قرطاجة[12] ، ودخان العنف[13] الذي كان يخنق انفاس المقاومة جنبا الرومان عناء اقامة مؤسسة عسكرية في الولاية . إذ أن تفكك عرى التضامن بين العنصرين المغربي والقرطاجي وانحياز بعض المدن الحرة الى جانب الرومان ، جعل هؤلاء يطمئنون على أنفسهم نسبيا في الولاية ويضعون لها انظمة مدنية تعمل على « رومنتها » تدريجيا .

2 ـ ان مملكة نوميديا الحليفة للرومان كانت تقوم بحماية ظهر الولاية ، وان كان ذلك لم يكن صريحا ، ولم تتضمنه نصوص تاريخية ، والذي ينبه الى هذه الملاحظة ، ان روما قد اعترفت لمملكة نوميديا بالأراضي التي اقتطعتها من أراضي الدولة القرطاجية قبل سقوطها . ولعل ابقاء الرومان على تلك الاقاليم الواسعة ، التي تطوق الولاية الرومانية في ايدي النوميديين كان من الأمور التي تحتمها سياسة الاحتماء بالحلفاء[14] ، خاصة وان تلك الأراضي الجبلية والصحراوية كانت موطنا لقبائل صعبة الانقياد ، ولا تركن للاستقرار ، أو الخضوع لسيطرة أجنبية مفروضة عليها .

يضاف الى ذلك ان المتشيعين لعائلة الملك سيفاكس ـ وهم أكثر من كانت تخشى روما خطرهم من المغاربة ، نظرا لدورها في القضاء على كيانهم السياسي ـ كان ماسنيسا وأولاده قد استأصلوا شأفتهم من البلاد ، وبات خطر الثورة مستبعدا في تلك الظروف ، سواء كانت الثورة موجهة ضد خلفاء ماسنيسا ، أو ضد الوجود الروماني في المنطقة .

وبهذا الاعتبار يمكن وصف مملكة نوميديا بأنها كانت أشبه بمنطقة عسكرية بالنسبة للولاية الرومانية ، اضطلع فيها ملوكها الأوائل بمهمة تمهيد المنطقة لمستقبل كانوا يجهلون هويته ، نظرا لعدم وضوح الرؤية البعيدة لديهم ، في خضم جوهم السياسي المشحون بالضغائن ، وهو ما تقدم وصفه في قضية العرش النوميدي[15] ، فالولاء للرومان كان يمثل أحد السبل التي توجب على ملوك نوميديا أن يسلكوه كي يحافظوا على المملكة[16] ، لكن هذا الولاء كان يجنب الرومان متاعب كثيرة في المنطقة ، بل كان يعود عليهم بنفع اقتصادي وسياسي كبير .

4 ـ موريطانيا وأزدواجية الادارة فيها .

أنهى قيصر مرحلة التمهيد في نوميديا عام 46 ق . م ، عندما أعلن عن ضمها رسميا للممتلكات الرومانية . وقد استغل فرصة ثمينة واتته بقيام ملك نوميديا ضده ، وابداء بوكوس الثاني استعداده للقيام بمهمة التحالف مع الرومان عوضا عن يوبا الأول ، ورأى قيصر في هذه التطورات مكسبا اقليميا للرومان ، لانه يحقق لهم خطوات نحو الغرب يخطونها على حساب الممالك الوطنية ، كما يضمن لهم عنصرا من عناصر الامن لحماية الولاية الجديدة من خطر الوطنيين الموالين لبيت يوبا الأول ، لأن بوكوس سوف لن يألو جهدا في مساعدة احلافه الرومان ، وفي الدفاع عن مكاسبه الاقليمية التي حققها على حساب نوميديا .

وهنا ينبغي أن نشير الى أنه ليس من قبيل الصدف أن تكون خطة قيصر مشابهة لخطة سلفه سيبيو ن الايميلي في هذا الميدان ، ذلك أن هذا الأخير قد استجاب لرغبة ماسنيسا وأولاده فابقى على مملكة نوميديا ، وتسامح معها بخصوص الاقاليم التي ضمتها قبل الحرب الثالثة ، وذلك كي تشكل نوميديا الموسعة مجالا جغرافيا وسياسيا يقي الولاية الرومانية ، وهذا الاعتبار نفسه كرره قيصر مع بوكوس الثاني عندما تسامح معه ، واعترف له بالجزء الغربي من نوميديا ، في صورة مكافأة له على المساعدة التي قدمها لقيصر أثناء الحرب الافريقية ، غير أن النتيجة كانت مشابهة للتي حصل عليها الرومان مع نوميديا سابقا ، حيث درج بوكوس الثاني على موالاته للرومان ، وللحزب القيصري خاصة ، الى آخر حياته (33 ق . م)[17] ، وبذلك ساعد على خدمة المصالح الرومانية عامة ، وحماية ظهر الولاية الجديدة خاصة ، ومن ثم فإن وجه الشبه واضح بين الفائدة التي جناها الرومان من سياستهم تجاه نوميديا بعد القضاء على قرطاجة ، وما جنوه من سياسة قيصر تجاه موريطانيا عقب القضاء على نوميديا . على أن هناك اختلافا برز في سياسة الرومان تجاه موريطانيا ، يمكن ملاحظته في التراجع الذي طرأ على تلك السياسة بخصوص ضم

مملكة موريطانيا عام 33 ق . م ، اثر وفاة بوكوس الثاني ، حيث تم ضم المملكة طيلة ثماني سنوات قضتها تحت الادارة العسكرية بأمر من أوكتافيوس ، ثم تراجع هذا عن سياسته الاستعجالية عام 25 ق . م [18] ، عندما وجد في استعداد يوبا الثاني ضالته المنشودة ، فنصبه ملكا على موريطانيا الموسعة ، التي تمتد من حدود الولاية الجديدة الى المحيط الاطلسي ، وما كان ليوبا أن يكون أكثر من منفذ لأوامر الامبراطور اوكتافيوس في موريطانيا ، وبذلك عمل هذا الملك على اتاحة الفرص للنفوذ الروماني لأن يتغلغل في موريطانيا بكيفية تفوق ما كانت عليه الحالة في نوميديا موطن أجداده . وهكذا كان تراجع اوكتافيوس يمثل استدراكا لخطأ التسرع الذي صدر منه ، والمتمثل في عدم اعتبار العامل الزمني لسياسة الضم ، وكان اختياره ليوبا الثاني ، لان يكمل التمهيد ، تصحيحا منه لذلك الخطأ . ومن ثم فمهمة بوكوس الثاني قد استأنفها يوبا الثاني بجدية اكثر ايجابية لصالح سياسة « الرومنة » ، بدليل مخلفات ذلك الملك وخلفه بطليموس Ptolémé في عاصمة المملكة شرشال Caésaria (يول Jol) .

غير أنه لا ينبغي الاعتقاد بان التبعية الموريطانية للرومان ، كانت متطابقة في عهدي بوكوس ويوبا الثانيين ، ذلك ان تبعية المملكة في عهد الأول ، كانت سياسية أكثر منها اقتصادية وعسكرية ، في حين أن هذه التبعية قد تطورت في عهد يوبا لتشمل جميع الميادين ، حتى اعتبر يوبا كموظف مسؤول أمام الامبراطور على المصالح الادارية والاقتصادية والعسكرية الرومانية في مملكته ، على الرغم من لقب الملك الذي نعته به الامبراطور اوكتافيوس .

وعلى العموم عرفت موريطانيا حكما مزدوجا في الفترة ما بين 33 ق . م و 40 م ، تأرجح بين المظهر العسكري الذي دام ثماني سنوات عاشتها موريطانيا ملحقة بأملاك الامبراطور ، وبين المظهر المدني تحت عنوان المملكة الموريطانية ، الى ما بعد نهاية بطليموس عام 40 م ، حيث أعلن

الامبراطور كلوديوس Clodius [19] عن الفصل بين الموريطانيتين ، القيصرية والطنجية ، واعتبار كل منهما ولاية امبراطورية مستقلة عن الأخرى ، وذلك عام 42 م . وبذلك اعتبرت الموريطانيتان ضمن المقاطعات العسكرية التي يرجع أمرها الى الامبراطور وحده ، وظل الأمر كذلك الى نهاية العهد الامبراطوري الأول عام 284 م [20] .

ويبدو أن تمديد الادارة العسكرية في موريطانيا عموما يدل على أن مهمة الرومان لم تكن سهلة في هذه المنطقة ، وان فترة التمهيد التي عاشتها البلاد في عهد الحكام الوطنيين لم تأت بالثمار المرجوة منها بالنسبة للاستعمار الروماني ، ذلك أن حالة الحرب التي فرضها سكان السهول العليا الغربية الجزائرية والمرتفعات المغربية الحالية على الرومان ، كانت على ما يبدو من أبرز العوامل التي حتمت استبقاء الادارة العسكرية هناك الى زمن متأخر [21] . كما يظهر أن تراجع الليمس Limes الروماني في تلك المنطقة نحو الشمال ، يدل الى حد ما ، على حالة الطوارىء التي أرغم عليها الرومان تحت ضغط القبائل المقيمة في السهوب والجبال ، بالاضافة الى العوامل الاقتصادية في ذلك التراجع ، والمتمثلة في فقر المنطقة زراعيا .

على أن حكام موريطانيا الرومان تابعوا أسلوب التحالف المعتاد مع القبائل المحاذية لحدود الولاية اتقاء لخطرها ، من ذلك أن نقوش وليلي Volubilis (قصر فرعون) احتفظت بنصوص اتفاقيات مسالمة ابرمت مع قبائل البقات Bacates [22] التي كانت تستوطن الحواف الجنوبية للمستعمرات الرومانية في السهول الداخلية الرومانية .

ولعل استعصاء منطقة موريطانيا على الرومان هو الذي يبرر سياسة الفتح المحدود التي انتهجوها في هذه المنطقة المغربية ، ذلك أننا نلاحظ ان التوسع الروماني لم يتجاوز السهول الخصبة والسفوح الجبلية والهضاب المطلة عليها ، وهي منطقة غنية زراعيا ، تنتشر فيها المدن والقرى المغربية القديمة ، ثم ان الرومان لم يحاولوا كثيرا ان يخرجوا هناك عن المجال

الجغرافي للتأثير البونيقي ، حتى أن مناطق الريف الجبلية القريبة من السواحل تركها الرومان خلفهم ، ولم يكلفوا انفسهم عناء اخضاع سكانها تجنبا للمقاومة الوطنية التي كانت تعتصم بها وتنطلق منها .

غير أن هناك من الباحثين من يعتقد بأن سياسة الفتح المحدود في موريطانيا املتها ظروف خاصة ، تتمثل في كون الرومان لم يكن يعنيهم من موريطانيا سوى كونها تشكل الحلقة الأخيرة لاغلاق البحر الأبيض المتوسط (22) ، كي يصبح بحرا رومانيا ، ومن ثم اكتفوا بشريط ضيق في موريطانيا ولم يتوغلوا جنوبا كما فعلوا في نوميديا .

والواقع أن هذا التفسير ليس من السهل قبوله برمته ، لأنه لا يمتنع على المناقشة ، ذلك أن المناطق التي استحوذ عليها الرومان في بلاد المغرب كلها لا تتجاوز المناطق السهلية الصالحة للاستغلال الزراعي ، ولم يهتموا بالمناطق الجبلية الأخرى الا لأقامة تحصينات متقدمة فيها تمنع تسرب الوطنيين نحو تلك السهول ، أو لتشتيت تجمعاتهم الخطيرة على المستعمرات الرابضة في المناطق الزراعية .

والمتصفح « لأطلس الجزائر الأثرى
Atlas Archéologique de l'Algérie (23) ، يدرك هذه الحقيقة بسهولة ، وهي ان العامل الاقتصادي الزراعي كان له الدور الرئيسي في ضيق أو اتساع المجال الروماني بين منطقة وأخرى في بلاد المغرب ، ويمكن أن نضيف ان امتداد يد الاستغلال الروماني الى ما وراء جبال الحضنة والأوراس جنوبا بقصد الاستفادة من أراضي الري في كل من القنطرة (24) وبسكرة والحضنة (25) ، ليست الا دليلا يؤكد ما للاهمية الاقتصادية في توزيع التواجد الروماني بهذه البلاد .

5 ـ وضعية المغاربة الاجتماعية .

من مميزات القوانين الرومانية المتعلقة بالوضعية الاجتماعية لسكان الولايات ، أنها تقوم على مبدأ الطبقية الاجتماعية ، وعلى فكرة عنصرية تجعل للانسان الروماني الاعتبار الأول بين بقية الأجناس الأخرى . غير أن

هذة المميزات كان يلازمها مبدأ إدماجي ، يفسح المجال لمختلف المجتمعات الأجنبية ، لان ترتقي الى المجتمع الروماني بصفة تدريجية .

وتظهر أبعاد هذا المبدأ في احتواء النصوص القانونية الخاصة بمجتمعات المدن على بنود تخول لمواطني الدرجة الدنيا حق الارتقاء الى درجة أعلي ، وذلك عندما تتوفر فيهم شروط معينة ، يمكن اعتبارها نضجا للتأثير الروماني فيهم . الى حد لا يخشى معه أن يتحرك فيهم واعز الوطنية .

ومعنى ذلك أن روح القوانين المتعلقة بدرجات المواطنة ، كانت أشبه بسلم ترتقي منه الشعوب الخاضعة درجات صعبة متباعدة ، لتصل آخر مرتبة فيه ، فتجد نفسها في وضعية « المترومنين » . غير أن هناك غموضا كبيرا يكتنف الحقوق والواجبات الممارسة يوميا من طرف المتمتعين بوضعية « الرومنة » أو غيرهم ، فالنصوص الادارية والقضائية لم تجسد بوضوح موقف النظم الرومانية من الفيئات الاجتماعية المختلفة في المدينة الواحدة ، أو على مستوى الولاية ، سواء كانت هذه الفيئات من صنف الرومان أو اللاتين ، أو الأجانب (26) .

ان ندرة المعلومات المتعلقة بالوضعية الاجتماعية للمغاربة ، أواخر العهد الجمهوري وبداية العهد الامبراطوري الروماني ، تجعل البحث في هذا الموضوع من الأمور الصعبة التي لا يستبعد معها الخطأ . ذلك أن الهياكل التشريعية والادارية الرومانية في بلاد المغرب ، لم تبرز بوضوح الا خلال القرن الثاني الميلادي ، وهو زمن متأخر عن فترة البحث الذي نعالجه . ثم ان كتابات المؤرخين اعتادت أن تركز على فترة الأزدهار الروماني في المنطقة ، حيث تتوفر النصوص القديمة ، والشواهد التاريخية التي يستقي منها الباحثون مادة الكتابة العلمية . يضاف الى ذلك ان أوضاع افريقيا الرومانية كانت متقلبة في اخريات العهد الجمهوري ، لأن هذا الحكم لم يكن يهمه من أمر الولايات الافريقية ، وباقي المنطقة المغربية ، الا ما كانت تزود به روما من منتوجات فلاحية . أما بداية الحكم الامبراطوري فيتميز هو الآخر بعدم الاستقرار الداخلي والخارجي ، حيث كانت قضايا

الأمن في ايطاليا والولايات تستحوذ على الاباطرة الأوائل ، وتصرف جهودهم الى المجالات العسكرية على حساب المجالات التنظيمية ، ومن ثم قل اهتمام الدولة الرومانية في تلك الفترة بالوضعية الاجتماعية للمغاربة ، وظل أمر هؤلاء موكولا الى الحكام المحليين الذين كان اهتمامهم الأكبر منصبا على ثروة الولايات ، وعلى كيفية ابتزازها[27] .

أورد جوليان وصفا مقتضبا لوضعية الأفراد المغاربة في ظل الحكم الروماني ، غير أن هذا الوصف يشمل مدة طويلة تغطي الفترة الممتدة من عهد اوكتافيوس أغسطس الى عهد غورديانوس الثالث ، وبالتالي فإنه يتعذر تعميم هذا الوصف على المغاربة الذين عاشوا في الفترة المتقدمة تحت السيطرة الرومانية ، أي ان معلومات جوليان تخرج عن الاطار الزماني لهذا البحث ، مما يجعلها قليلة الأهمية ولا تغني الموضوع كثيرا .

ومما ذكر جوليان ان وضعية الأفراد كانت متنوعة ، وان « النظام الذي كان يخضع له الفرد لا يرتبط بنظام البلدية التي يقطن بها الا مبدئيا »[28] ، وان عناية الاباطرة كانت موجهة الى الطبقة الارستقراطية المغربية لتشجيعها على الاندماج في الوضع الجديد ، والعمل على "تنمية التأثير الروماني في المغرب »[29] . وكان لهذه السياسة أثر على خلق طبقة أرستقراطية مغربية في المدن ، عرفت بولائها للرومان ، نظرا للترابط المصلحي بينها وبينهم[30] .

ويظهر أنه باستثناء تلك الفئة القليلة من أهل الحضر ، فان أغلبية الجماهير المغربية ظلت خارج هذا الاعتبار ، تعيش على هامش تلك الحياة عيشة المتفرج على مجتمع يفوقه منزلة ويعلوه شأنا ، فتتوق نفسه الى اللحاق به تحت تأثير عامل الغيرة والمحاكاة ، وهو عينه ما كانت تسعى اليه روح القوانين ، ودرجات المواطنة عند الرومان .

ان اللجنة التشريعية التي عهد اليها مجلس الشيوخ بمهمة تنظيم الولاية الرومانية عشية سقوط الدولة القرطاجية عام 146 ق . م ، انحصرت مهمتها في اقامة حدود الولاية ، وتنصيب الحاكم ، ووضع ترتيبات تهم

علاقة الولاية بالمدن الحرة الحليفة ، وتنظيم أساليب الجباية ، وغير ذلك من الأمور ذات الطابع الاستعجالي ، فهي ليست لجنة تشريعية ، وظيفتها وضع نصوص قانونية تحدد الوضعية الادارية والاجتماعية لأهالي الولاية ، ومن ثم فان المواطنين المغاربة ظلوا عرضة للتصرفات المتقلبة التي كان يعاملهم بها الحكام الرومان المتعاقبون على الولاية ، الذين ساعدتهم فترة التولية القصيرة على أن يسيئوا معاملة الناس تحت دوافع الكسب الفوري[31] .

ثم ان السلطة المركزية في روما ، لم تكن تمنح لحكام الولاية صلاحيات تشريعية تخولهم اصدار قوانين قارية تكون أساسا لحكم من يأتي بعدهم ، وتحدد بوضوح حالة سكان الولاية المتعددي الطبقات ، فأمر هذه الفئات الاجتماعية الأجنبية الخاضعة للحكم الروماني كان متروكا للحاكم المؤقت الذي يتصرف في أمورهم بمحض إرادته واختياره ، وهو ليس ملزما باتباع خطة سلفه في معاملة الأهالي ، فله أن يقتدي بمن سبقه من الحكام ، في تصرفاته تجاه المحكومين ، أو يغير أسلوبه نحوهم ، حسب ما تمليه عليه الظروف العامة ومصالحه الخاصة في الولاية[32] .

يضاف الى ما تقدم أن التشريعات الرومانية بصفة عامة ، كانت لا تولي اهتماما كبيرا لقضايا الشعوب الخاضعة ، بقدر ما كانت تهتم بالشعب الروماني نفسه ، أي أنه رغم ضخامة العمل التشريعي الذي بوأ الرومان مكانة مرموقة في تاريخ التشريعات الانسانية ، فان حظ الشعوب المستعمرة من تلك التشريعات يبدو ضئيلا لدرجة يصعب معها التعرف على الأوضاع القانونية التي تحدد الوضعية الاجتماعية لتلك الشعوب في ظل الحكم الروماني .

أما قوانين عام 111 ق . م ، التي صادفت ثورة يوغرطة في نوميديا ، فهي لا تتجاوز مجال الأرض ، اذ هي في الحقيقة ، تصحيح للقوانين الكراكية Graques الاصلاحية في موضوع الزراعة خاصة[33] ، ولا تمس في جوهرها كثيرا الوضعية الادارية ، أو الاجتماعية للانسان المغربي .

أما درجات المواطنة عند الرومان ، فمن الشائع أنها نوعان :

ـ مواطنة رومانية ، تخول المستفيدين بها جميع الحقوق السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي يتمتع بها مواطنو مدينة روما نفسها[34] ، وكانت هذه المواطنة لا تمنح في بداية الأمر الا للمستوطنين الرومان ، من معمرين واداريين وتجار ، وغيرهم ممن يعودون في أصلهم الى مدينة روما ، أو الى احدى المدن المتمتعة بالمواطنة الرومانية في ايطاليا .

ـ مواطنة لاتينية ، يتمتع مستحقوها بحقوق أقل قيمة من حقوق المواطنة الرومانية وكانت تمنح في الأصل الى بعض الشعوب الحليفة في ايطاليا ، ثم أخذت تعمم في الولايات خاصة عندما استوطنت الولايات جاليات لاتينية .

ما عدا المتمتعين بهذين النوعين من المواطنة ، فان جميع الشعوب الخاضعة للرومان ، سواء كانت في ايطاليا أو في خارجها ، تعد في وضعية الاجانب الذين يخضعون لادارة الحكام الرومان في التسيير والمعاملة ، أي أن وضعية هؤلاء الاجانب ومنهم المغاربة كانت في بداية الأمر وضعية غير مستقرة ، خاصة وان سياسة الرومان الرامية الى ادماج الشعوب الخاضعة في المجتمع الروماني كانت لا تحظى بالتأييد من طرف مجلس الشيوخ خلال فترة الفتوحات (اواخر العهد الجمهوري وبداية العهد الامبراطوري) باستثناء الخطوات التي امكن لقيصر ان يخطوها في مجال توسيع دائرة الحقوق المدنية الرومانية لصالح الشعوب الخاضعة في الولايات ، غير أن هذه الخطوات ما لبثت أن أخذت تتعثر عقب مصرع قيصر عام 44 ق . م .

الى جانب ما تقدم هناك اعتبار هام ، لا شك أنه ساهم في حرمان فيئات كثيرة من المغاربة من الحصول على حقوق مدنية تمكنهم من الرقي الاجتماعي بالادماج في احدى صفتي المواطنة ، ومضمون هذا الاعتبار هو أن الذين لا يملكون أراضي من سكان الولايات يعدون في وضعية الاجانب ، أي أن ملكية الأرض من الشروط الأساسية للاندماج ، ولا يصعب أن نتصور النسبة المغربية المنخفضة التي كانت تملك أراضي

في الولايات الرومانية ، خاصة منها تلك الأراضي التي تحيط بالمدن والمستعمرات الرومانية نظرا لاهميتها الاقتصادية ، فضلا ان سكانها المغاربة يعدون أكثر تعرضا للتأثير الروماني من غيرهم ، نتيجة الاحتكاك بالعنصر الروماني بسبب الجوار والتعامل ، ذلك أن جميع الأراضي الواقعة في اقليم قرطاجة سابقا ، قد اعتبرت ملكا للشعب الروماني بمجرد سقوط الدولة القرطاجية عام 146 ق . م[35] ، باستثناء أراضي المدن الحرة . يضاف الى ذلك أن أغلبية أراضي الولاية الافريقية ، كانت تحت حيازة ملاك كبار ، وصفهم پلين الصغير Pline le jeune بأن ستة منهم لا غير كانوا يستحوذون على تراب افريقيا في عهد الامبراطور نيرون Niron [36] .

واذا تذكرنا الاعتبار الذي أخذ به الرومان سكان الولاية غداة القضاء على قرطاجة ، فانه يمكن تلخيص وضعية هؤلاء السكان ـ باستثناء مواطني المدن الحرة ـ في الصنفين التاليين :

1 ـ اعداء مهزومون ، نتيجة وقوفهم الى جانب القرطاجيين في الحرب الاخيرة ، وفي هذه الحالة عوملوا بمثل ما عومل به القرطاجيون .

2 ـ محايدون أجانب ، لم يشاركوا في الحرب الى جانب القرطاجيين . وفي هذه الحالة ، ادرجوا في وضعية التابعين ، لكن أرضهم ملك للشعب الروماني المنتصر ، نتيجة انتصار الرومان على القرطاجيين ، وبحكم وراثتهم لبلادهم التي كانوا يحكمونها بما فيها السكان[37] .

على أنه ينبغي أن يلاحظ ان كلتا الحالتين لم يظفر فيهما المغربي بالحقوق المدنية لأن الرومان قد أعتبروه مهزوما في الحالة الأولى ، وجردوه من ملكية الأرض التي تخول له العضوية في المدينة في الحالة الثانية .

إضافة الى ما تقدم ، فإن هناك ما يمكن أن يفسر من المستندات الرومانية في هذا الموضوع ، وهو أن بعض النصوص احتفظت بتسميات كان يطلقها الرومان على المغاربة ، تحدد الاطار الاجتماعي الذي أدرجوا فيه غداة الاحتلال الروماني ، وظلوا ضمنه الى نهاية العهد الجمهوري على

الاقل [38] ، من ذلك أنه كان يطلق على المغاربة الخاضعين للادارة الرومانية في الولاية اسم (ستيبيند ياري Stipendiarae) ، وهي تسمية مشتقة من اسم ضريبة التعويضات الحربية التي كان الرومان يجبرون مغلوبيهم على دفعها ، وكان يطلق على هذا النوع من الضرائب عبارة (ستيبند يوم Stipendium) . وهي تعني من بعض الوجوه ضريبة المهزومين [39] .

ويبدو أن إطار المهزومين كان يميز المغاربة ، في منطقة افريقيا الرومانية عن غيرهم من الرومان واللاتين ، إلى زمن يصعب تحديده . والمهزوم بطبيعته لا يتجاوز حالة كونه عدوا يستوجب اليقظة والحذر ، وهو بهذا الوضع السياسي والاجتماعي يعتبر اجنبيا عن المؤسسة المدنية الرومانية في وطنه .

غير أنه ينبغي اتباع جانب الحذر في هذا الاستنتاج ، بخصوص عامة المغاربة ضمن وخارج الولاية الرومانية ، اذ أن هذه الوضعية التي كان عليها المغاربة داخل المنطقة المفتوحة عنوة ، لا يمكن اعتبار باقي سكان الولايات الرومانية الجديدة في حكمها ، حيث أن هذه الولايات قد أسست في مناطق تم ضمها بأساليب اختلفت عن تلك التي استعملت مع قرطاجة ، فالضم التدريجي لنوميديا وموريطانيا ، عن طريق التمهيد السياسي والحضاري استدعى اتباع أساليب مغايرة في معاملة الاهالي الخاضعين للوضع الجديد بالطرق الاقل عنفا .

والظاهر أن أغلبية سكان المنطقة المغربية التي كانت تابعة للرومان ، كانوا في وضعية الاجانب ، تشرف الادارة الرومانية على شؤونهم بطريقة غير مباشرة ، حيث ابقت على الانظمة البلدية البونية سائرة في أوساط المجتمع المغربي ، موكلة أمر الاشراف عليها الى القادة المحليين ، من زعماء القبائل الذين عرفوا بنفوذهم السياسي ، وبطموحهم الى القيادة ، سواء في الحواضر أو الارياف المغربية [45] .

الا أن الجانب الذي يمكن أن يلاحظ فيه نوع من التباين بين سكان الولاية القديمة ، والولايات الجديدة ، يظهر في سياسة التسامح التي اظهرتها الادارة الرومانية للمغاربة في الولايات الجديدة ، بخصوص الحكم ، حيث تركت لهم نوعا من الاستقلال الذاتي ، مقابل ربط زعمائهم بعلاقات تحالف وحسن معاشرة تجاه المستعمرات الرومانية المتناثرة خارج المدن ، وهي سياسة لين ، كانت تستهدف تجنب الشغب الذي قد يثيره الوطنيون لعرقلة نشاط تلك المستعمرات .

وتنم هذه السياسة كذلك عن الاستفادة الرومانية من أسلوب حسن الجوار الذي يعتمد على تهدئة خواطر زعماء القوم ، وهو أسلوب كانت تنتهجه الدولة القرطاجية مع زعماء القبائل المغربية المجاورة لها لتكسب مودتهم وتأمن خطر ثورتهم ضدها . وهذا النوع من الاساليب السياسية ينطوي على دعوة ، فيها ملاطفة مقصودة لوجهاء الناس لأن يندمجوا في الوضع الجديد ، بعد أن يتعودوا على الأمر الواقع الناتج عن الاحتلال الروماني .

وتتجلى ملامح سياسة اللين الرومانية بصورة أوضح في فتحهم باب الارتقاء الاجتماعي أمام الأعيان والوجهاء المغاربة ، كي ينتقلوا من درجة الاجنبي الى درجة المتمتع بالعضوية اللاتينية ، أو الرومانية ، مقابل ولائهم وخدمتهم للمصالح الرومانية ، حتى يكونوا قدوة لقومهم في هذا السبيل [41] وكثيرا ما حصل أفراد هذه الفيئة الاجتماعية على القاب رومانية ، كما تسلم بعضهم مسؤوليات مختلفة الاهمية على المستوى الداخلي ، لقاء كرمهم واغداقهم على المشاريع المحلية من أموالهم الخاصة [42] .

أما الزعماء الاحلاف ، فكانوا يحصلون على الاعتراف بسلطتهم على القبائل من طرف حكام الولايات ، أو رؤساء البلديات ، تبعا لأهميتهم ، ويتسلمون اشارات هذا المنصب السياسي من المسؤولين الرومان [43] . وقد يضاف الى اسم الواحد منهم لقب روماني [44] ، اذا ما قدم خدمات تبرهن على صدق نيته في الخضوع ، واخلاصه لنصوص الاتفاقيات المبرمة بين قبيلته و بين السلطة الرومانية .

على أن هذه التنازلات الهادفة لنشر الرومنة وتدعيمها ، كان المستفيدون منها قلة من بين المغاربة ، نظرا لقلة من تنطبق عليهم ، ومن ثم ظل سواد الناس خارج تلك الامتيازات المغرية .

لكن هذه النتيجة المنطقية ، يمكن أن تفسر الهدف الحقيقي الذي كانت ترنو اليه السلطة الرومانية من وراء منحها تلك الاغراءات لأفراد قلائل من النخبة المغربية التي اوجدت لنفسها مصالح في الوضع الجديد ، وترغب في تزكية مركزها الاجتماعي . فالحقيقة المستهدفة من وراء تلك المرونة ، لم تكن تعني فتح باب الادماج أمام جميع الفيئات الاجتماعية المغربية ، لتدخل المجتمع الروماني على أساس من التساوي في الحقوق والواجبات والاهمية الانسانية ، بل ان الطبيعة العنصرية التي عرف بها الرومان والتي زكتها رغبتهم في المحافظة على امتيازاتهم الجنسية والاجتماعية والاقتصادية ، تقوم ضد فكرة المساواة بينهم وبين الشعوب التي قهروها بقوة السلاح . ومن ثم فان تلك المرونة التي ابداها الرومان ازاء بعض المغاربة لا تعدو أن تكون ظاهرة من مظاهر استقطاب العناصر المغربية اللامعة ، سواء كانت من ذوي الزعامة السياسية ، أو من بين أثرياء المجتمع المغربي في المدن والقرى . وبعبارة مختصرة ، فان الغرض من تلك التنازلات كان أسرا سياسيا ، وليس جودا انسانيا ، سخت به المؤسسة الرومانية على الانسان المغربي المقهور ، في اطار رسالة روما التمدينية .

وتدعيما لما سبق استخلاصه من خصائص الحكم الروماني ، فإن حكام الولايات كانوا لا يكترثون للدور الحضاري الذي كان متوقعا أن تقوم به مؤسساتهم المدنية (البلديات) ازاء جيرانهم المغاربة ، بدليل أن التأثير الروماني لم يظهر له أثر كبير في أوساط المجتمع المغربي خارج حدود الولايات ، وهو ما يؤكد حقيقة العلاقات التي أقامها أولئك الحكام مع الزعماء المغاربة المجاورين ، بان أساسها كان يهدف الى تجنب الصدام بالمقاومة الوطنية ، وتوفير الأمن للمستعمرات الرومانية كي تمارس نشاطها الاستغلالي في أنسب الظروف . ويلخص جوليان هذه العلاقة في العبارة

التالية : « اعتمدت روما على ارستقراطية البلديات لتوطيد استعمارها لبلاد البربر من دون أن تكترث بالجماهير البربرية »[45] .

كما أكد هذه الحقيقة شارل بيكار (Picard (G.ch.)) بما ملخصه ، ان الرومان لم يهتموا بالقبائل المتنقلة عبر السهول العليا السهبية ، الا لأمرين أساسيين يتمثلان في الحد من حملات تلك القبائل على أراضي المستعمرات الرومانية في الشمال ـ أثناء موسم الحصاد ـ من جهة ، والسيطرة على تجارة الصحراء ، التي كانت تمثل موردا اقتصاديا هاما من جهة أخرى[46] .

ورغم هذه السمات التي كانت تتصف بها سياسة الرومان تجاه المغاربة ، فان بعض المؤرخين[47] من يذهب الى الاعتقاد بأن تلك السياسة كانت لها فعالية ايجابية كبيرة في ميدان « الرومنة » ، على اعتبار ان المغاربة حصل بعضهم على حق المواطنة الرومانية ، وارتقى آخرون مناصب سياسية في المستوى المحلي والامبراطوري[48] .

غير أن هذا الاعتقاد لا يسلم من النقد ، ذلك أن وصول بعض المغاربة الى المناصب العليا في الادارة المحلية ليس دائما نتيجة لحصولهم على حقوق المواطنة الرومانية التي تخولهم الارتقاء الى أي منصب إداري ـ عملا بالحقوق التي يضمنها قانون المساواة بين المواطنين الرومان ـ ، بل يعود كذلك الى سياسة الترغيب التي كانت تنتهجها السلطة الرومانية تجاه افراد لامعين من المغاربة الحضر . ثم ان من وصلوا الى مناصب سياسية على مستوى الامبراطورية الرومانية ، انما بلغوا ذلك نتيجة ظروف سياسية استغلها بعضهم في اعتلاء منصب سياسي سامي كسبتميوس سيفيروس Septimius Séverus الذي اعتمد على الجيش في الوصول الى منصب امبراطور . يضاف الى ما تقدم ان من حصلوا على مسؤوليات ادارية وسياسية في جسم الامبراطورية من المغاربة كانوا قليلين جدا ، رغم طول فترة الاستعمار الروماني ، وهو ما يقوم دليلا على أن عدد العائلات المغربية التي حصلت على امتياز المواطنة الرومانية كان ضئيلا .

ومن جهة أخرى ، فإن الحقوق الرومانية التي كانت تمنح من طرف الاباطرة بصفة جماعية ، كالاعلان عن اعتبار مدينة ما ضمن المدن الرومانية ، كما فعل اوكتافيوس بخصوص مدينة طنجة عام 38 ق . م [49] . فان وضعية سكان تلك المدن لا يزال يكتنفها الغموض . ويظهر أن هذا الشذوذ الذي سجلته السياسة الرومانية ، في ظروف معينة بمنحها حقوقا رومانية لمدينة أجنبية ، دون أن تمر بتمهيد مناسب ، ظاهرة لا يوجد لها تفسير أنسب من كون تلك « الرومنة » الجماعية انما هي صورة من صور الحماية لا غير . وان الهدف من ذلك يتمثل في فتح ابواب المدينة المعنية للمستوطنين الرومان ، ليكونوا فيها مجتمعا رومانيا بالتعاون مع العناصر المغربية الموالية . ولا يستبعد ، في هذه الحال ان يظل بقية سكان المدينة في وضعية الخاضعين ، لا المتمتعين بحقوق المواطنة الرومانية .

أما الباب الذي كان دخوله مباحا لجميع المغاربة كي يدخلوا منه للحصول على المواطنة الرومانية ، فهو الجندية ، وهي وسيلة تبدو لأول وهلة انها أقرب السبل واسهلها على الناس . الا أن الانتفاع بهذه الطريقة للحصول على الجنسية الرومانية كان معتذرا بالنسبة لاغلبية المغاربة ، وذلك لأسباب متعددة أهمها : ان قدرة استيعاب الجيش الروماني للعناصر المحلية في الولايات ، كانت محدودة ، وان طول مدة الخدمة العسكرية المشروطة ، لكي يتقاعد الجندي ويتمتع بامتيازات المواطنة الرومانية ، ليس في مقدور الجميع تحملها ، خاصة وأن المغاربة قد اشتهروا بحبهم للحرية وبنفورهم من الخضوع للقيود الاجنبية ، وهو ما تفسره ضآلة العناصر المغربية في الوحدات العسكرية النظامية للجيش الروماني ، اذا قورنت بارتفاع عدد المغاربة في الفرق المساعدة التي لا تنتفع بالحقوق الرومانية .

أخيرا ، يمكن أن نستخلص صورة عامة لوضعية المغاربة عقب الاحتلال الروماني على الوجه التالي :

1 ـ سكان الارياف المغربية التي تشملها الحدود الرومانية ، كانوا

يعيشون في وضع الاعداء الخاضعين قهرا ، تحيطهم المنشآت العسكرية الرومانية ، المتمثلة في الليمس (الحدود) ، والحصون ، والقلاع ، ومستعمرات قدماء الجنود Véterens . كان بعضهم على اتصال بالمستوطنين الرومان ، وذلك عن طريق العمل في الأراضي الزراعية التابعة للمعمرين ، كما اختار بعضهم الآخر حياة الانعزال عن المؤسسة الرومانية ، محافظة على الاستقلال وتمسكا بالحرية ، حتى ان المناطق الجبلية التي كانت تستوطنها هذه الفيئة الأخيرة من المغاربة ، وصفت بأنها كانت أشبه بجزر مستقلة في بحيرة رومانية دلالة على احتفاظ سكانها الجبليين باستقلالهم ، ورفضهم الاندماج في المجتمع الروماني الدخيل ، وعدم اقبالهم على « الترومن » ، بل ان تلك المناطق كانت تمثل رمزا للمقاومة الوطنية التي تتخذ لها هناك معاقل للثورة ضد الرومان .

2 ـ سكان مهادنون ، سواء ضمن حدود الولايات الرومانية ، أو على تخومها ، كانوا مرتبطين بمعاهدات سلم أو تحالف مع الرومان . اختار هؤلاء تلك الوضعية الهامشية ، بعد أن ظهر لهم عدم جدوى الثورة ضد الرومان في تلك الفترة التي تمثل أوج قوة العسكرية الرومانية .

3 ـ أما الفيئة الاجتماعية الثالثة التي يمكن إدراجها في حالة قابلة « للترومن » فهي الطبقة الارستقراطية من سكان المدن الذين تمكنوا من الحصول على ملكية الأراضي أو العقارات الأخرى ، وكانت امكانياتهم المادية تسمح لهم بمشاركة الرومان في مستوى الحياة الاقتصادية ، والاندماج معهم تدريجيا في الحالة الاجتماعية الجديدة ، خاصة وأن سياسة الرومان كانت تعمل على استقطاب هذه الفيئة من الناس ، وتفسح لها مجال الاثراء الاقتصادي ، والارتقاء الاجتماعي ، كي تساعد الرومان على تثبيت نفوذهم في المنطقة ، نظرا لارتباط مصالحها بهذا النفوذ . وقد تزايد عدد هذه الفيئة فيما بعد ، عندما استتب الامن نسبيا في الولايات الرومانية بالبلاد ، وثبتت الانظمة الادارية والاقتصادية فيها ، وأتاحت التشريعات الجديدة فرصا أوسع أمام سكان الولايات ليقبلوا على الذوبان في المجتمع الروماني الواسع .

6 ـ هوامش الفصل الثالث

1 ـ Albertini (E.), L'Afrique Romaine, P. 15.

2 ـ نفس المصدر . ص . 15 .

3 ـ هي الحملة العسكرية التي قام بها القائد يوليوس قيصر على ولاية افريقيا عام 47 ق . م . وكان كوريون Curion قد بدأها منذ عام 49 ق . م . ضد اتباع بومبي الذين تجمعوا في الولاية الافريقية . واخذوا يهاجمون شواطيء ايطاليا . انظر : هشام الصفدي . تاريخ الرومان . ج . 1 . ص . 297 . وكذلك ، عبد اللطيف احمد علي التاريخ الروماني . ص . 276 . وما بعدها .

4 ـ تمييزا لها عن الولاية الجديدة التي سميت Africa Nova

5 ـ لم تحتفظ المصادر بتفاصيل شافية حول تلك الثورة التي اعقبت ضم نوميديا . وكان على رأسها الامير ارابيون .

6 ـ شارك النوميديون مشاركة فعالة في هزيمة القائد القيصري كوريون الذي نزل بشواطيء افريقيا لافتكاك الولاية من ايدي انصار بومبي المعتصمين بها منذ هزيمتهم في فارسالوس Pharsalus ببلاد اليونان ، انظر : جوليان ، تاريخ افريقيا الشمالية ، ج . 1 (معرب) . ص . 164 .

7 ـ فرض قيصر غرامة باهضة على انصار بومبي المهزومين ، قدرت بـ 200 سستيرس Sesterces (وحدة العملة الرومانية آنذاك) . على ان يقوموا بتسديدها على ثلاث دفعات خلال فترة لا تتجاوز الثلاث سنوات . انظر : Walter (G.), César, P. 377.

8 ـ Pallu de lesserte, F.P.A., T: 1, PP. 307-309.

9 ـ راسل سالوست قيصر يهيب به للعمل على وضع حد لمفاسد مجلس الشيوخ الذي سيطرت على الطبقة الارستقراطية . ومما جاء في مراسلاته قوله : « ان رجلا واحدا مثل قيصر يستطيع اعادة تنظيم الدولة ». وكانت احدى رسائله الى قيصر معنونة كالتالي : « رسالة الى قيصر الشيخ في اصلاح الدولة » . كما جاء في هذه الرسالة : « وهؤلاء الجبناء مستعدون للتضحية بانفسهم في سبيل القضاء عليك ، ويفضلون ان تهدر الحرية بسقوطك على ان تصبح الامبراطورية عظيمة على يدك . انظر : عبد اللطيف احمد علي ، التاريخ الروماني ، ص . 240 ـ 241 ، (الهامش) .

10 ـ تقاسم مجلس الشيوخ والامبراطور مسؤولية الاشراف على الولايات ، وكذلك منذ فجر الامبراطورية (حوالي عام 27 ق . م) ، فاحتفظ مجلس الشيوخ بايطاليا والولايات القديمة التي لا يخشى فيها على الامن ، بينما اخذ الامبراطور اوغسطس على عاتقه مهمة التصرف في شؤون الولايات الجديدة التي ما زال سكانها يقلقون الرومان بثوراتهم ، وكانت افريقيا من بين هذه الولايات ، انظر :
Albertini (E.), l'Empire Romain P. 29.

11 ـ من ذلك ابقاء الرومان على الانظمة الادارية القرطاجية كالقاب رؤساء البلديات الذين كانوا يدعون شفط Suffets ، أي قضاة ، وهو لقب ظل يحمله من يشغلون هذه المناصب في القرى والمدن المغربية التي لم تحصل على حقوق رومانية . انظر : جوليان ، المصدر السابق . ص . 202.

12 ـ بعد سقوط قرطاجة تحطيما لاماني احفاد سيفاكس المعادين لمملكه نوميديا ، ومعلوم انهم قاموا بحركة معادية لماسنيسا قبيل الحرب البونية الثالثة . انظر : جوليان . المصدر السابق . ص . 141 .

13 ـ من الامثلة على ذلك تلك الاعداد الهائلة من المغاربة والقرطاجيين الذين سيقوا الى اسواق العبيد في روما ، بعد ان فعل الرومان بمدنهم وقراهم ما فعلوه بمدينة قرطاجة .

14 ـ يبدو أن سياسة الاحتماء بالحلفاء كانت احدى المظاهر البارزة في علاقة الرومان بجيرانهم ، لأن تلك السياسة تنسجم مع خطتهم في إقامة الأحزمة الواقية حول حدود الأمبراطورية بواسطة الدول المحلية الخاضعة لهم ، وهذا ما فعلوه في مقدونيا بعد تغلبهم عليها ، حيث أبقوا على تلك المنطقة في وضعية البلاد الحليفة كي تشكل حزاما يواجه البرابرة الأليريين .

15 ـ انظر الفصل الأول من هذا البحث ، ص . 6 وما بعدها . وكذلك ص . 10 وما بعدها .

16 ـ باستثناء يوغرطة الذي سجل خروجه عن هذا السلوك احداثا كبيرة في العلاقات الرومانية / النوميدية .

17 ـ بدليل أنه وقف الى جانب أوكتافيوس خلال خلافات هذا الأخير مع أنطونيوس ، وبذلك خالف بوكوس موقف جاره ملك موريطانيا الغربية بوغود .

18 ـ هي الفترة التي أصبح فيها للرومان حلفاء في موريطانيا ، نتيجة لتواطؤ بوكوس الأول في شأن صهره وحليفه يوغرطة .

19 ـ اعتلى كلوديوس Claudius عرش الأمبراطورية الرومانية في الفترة ما بين 41 و 54 م ، وقد واجهته صعوبات جمة في اخماد الثورة الوطنية في موريطانيا . انظر : جوليان ، المصدر السابق ، ص . 178 ـ 181 .

20 ـ جوليان ، المصدر السابق ، ص . 201 ، وكذلك وليام لانجر . موسوعة التاريخ ، ج . 1 . ص . 220.

21 ـ من ذلك أن اتحادا كاد يتم بين جميع سكان تلك المنطقة لمقاومة الاستعمار الروماني ، وذلك عام 170 م ، الأمر الذي أخشى الرومان فشددوا تحصينات المدن . انظر حول هذا الموضوع :
Amine (A.), Brigon (J.), histoire du Maroc, P. 30.

22 ـ نفس المصدر ، ص . 32 ـ 33 .

23 ـ Gsell (St.), Atlas archéologique de l'Algérie, 2 tomes

24 ـ انظر حول هذا الموضوع : Despois (J.).
Revue africaine, (1942), N° 86-87. PP. 196-219.

25 ـ أورد ديبوا Despois معلومات قيمة في كتابه «الحضنة Le hodna حول الأهمية الاقتصادية التي تتمتع بها المنطقة ، والدور الذي سجلته تلك الأهمية في جذب الرومان جنوبا .

26 ـ تصنف المدن عند الرومان إلى ثلاثة أصناف :

أ ـ المدن الرومانية ، يتمتع سكانها بحق المواطنة الرومانية ، ويمارسون نفس الواجبات والحقوق التي يمارسها سكان مدينة روما .

ب ـ المدن اللاتينية الحليفة ، يشملها قانون وسط ، فأهلها أقل درجة من الرومان وأحسن من الأجانب .

جـ ـ مدن أجنبية خاضعة ، تطبق فيها أنظمة سابقة للاحتلال الروماني في أغلب الأحيان ، ولا يتمتع سكانها بأي حق من حقوق الرومان أو اللاتين . يضاف إلى ذلك المدن الحرة التي أبقى عليها الرومان مستقلة في شؤونها الداخلية ، مثل المدن الأفريقية السبعة (أوتيكا ، حضرموت ، لمطة ... الخ) .

27 ـ Gsell (St.), H.A.A.N., T: 7, PP. 28-30.

28 ـ جوليان ، المصدر السابق ، ص . 203 .

29 ـ نفس المصدر ، ص . 103 .

30 ـ كان القناصل يتنافسون على الفوز بولاية افريقيا لغناها ، حتى أن بعضهم كان يستدين على وظيفة حاكم افريقيا ، كما فعل قيصر ، ثم ان سالوست جمع ثروة كبيرة من ولاية افريقيا الجديدة وأقام بها حدائقه المشهورة بروما .

31 _ Gsell (St.), H.A.A.N.. T· 7, PP. 28-30.

32 _ سيأتي توضيحه في الفصل الرابع من هذا البحث .

33 _ حول قضايا الحقوق المدنية وتطورها عند الرومان ، انظر :
_ هشام الصفدي ، المصدر السابق ، ص . 94 _ 95 ، وكذلك ص . 223 _ 238 _ 302 .

34 _ انظر الفصل الرابع من هذا البحث ، ص . 107 وما بعدها .

35 _ اندري ايمار ، وغيره ، المصدر السابق ، ص . 39 .

36 _ Gsell (St.), H.A.A.N., T: , P. 47.

37 _ بدليل استعمال تلك التسمية من طرف الخطيب الروماني شيشرون في عهد قيصر ، وذلك خلال حديثه عن وضعية الولاية الافريقية .

38 _ Gafiot (F.), Dictionnaire latin français, P. 1479.
كما ورد ذكر هذه التسمية في مذكرات قيصر حول الحرب الافريقية Bellum Africum
وفي قانون الارض لعام 111 ق . م . انظر تفاصيل هذا الموضوع في :
Gsell (St.), H.A.A.N , T· 6, P. 48.

39 _ جوليان ، المصدر السابق . ص . 202 .

40 _ نفس المصدر ، ص . 203 .

41 _ اندري ايمار ، المصدر السابق ، ص . 387 .

42 _ تتمثل هذه الشارات في الرداء الاحمر وعصا العاج . انظر : جوليان ، المصدر السابق ، ص . 202 .

43 _ تضمنت معاهدات وليلي Volubilis (قصر فرعون) بالمغرب الاقصى القابا رومانية اطلقت على شيوخ قبائل مجاورين للرومان .

44 _ جوليان ، المصدر السابق ، ص . 204 .

45 _ Picard (G.CH.), Civilisation de l'Afrique romaine, P.P. 2.

46 _ Albertini (E.), Marçais (G.), Pregent (E.), A.N.F.H., P. 20.

47 _ جوليان ، المصدر السابق ، ص . 204 .

48 _ اتخذ اوكتافيوس ذلك القرار مكافأة لاهل المدينة بسبب ثورتهم في وجه الملك بوغود ومنعهم إياه من دخول المدينة ، وذلك بعد عودته من اسبانيا ، حيث كان يقاتل الى جانب انطونيوس .

الفصل الرابع

وضعية الارض في المغرب بين العهدين القرطاجي والروماني

1 _ مدى اهتمام القرطاجيين والمغاربة بالزراعة .

2 _ وضعية الأرض وأساليب النشاط الزراعي قبل العهد الروماني .

3 _ وضعية الأرض عقب سقوط الدولة القرطاجية .

4 _ المشاريع السابقة للاستيطان الروماني .
(الاجراءات التمهيدية)

5 _ هوامش الفصل الرابع .

1 _ مدى اهتمام القرطاجيين والمغاربة بالزراعة :

أهم الملاحظات التي تفرض نفسها على المهتم بدراسة الاستعمار الروماني في بلاد المغرب ، هي التي تتعلق بما كان يوجد من الارتباط الوثيق بين هذا الاستعمار واستغلال الأرض . ولعل هذه الملاحظة تتأكد في ذلك الاهتمام الشديد بالسهول الزراعية الداخلية خاصة ، وفي التركيز على الريف المغربي بصفة عامة ، وذلك من حيث التواجد الروماني ، وما صحبه من مظاهر العناية الفلاحية والتعمير ، الى درجة أن الساحل المغربي أخذ يفقد بعض أهميته أيام الاستعمار الروماني ، عندما نهضت المدن الزراعية الداخلية ، وازدهر بفضل نمو الاقتصاد الفلاحي والتجاري فيها ، ومن ثم لم تبق المدن الساحلية التجارية هي المحاور الرئيسية لمختلف الأنشطة الاقتصادية كما كان الحال خلال العهد القرطاجي .

أوحى هذا التحول الى بعض الباحثين أن يعتقدوا بأن الفضل في انبعاث الريف المغربي ، انبعاثا واسع النطاق ، يرجع الى الاستعمار الروماني الذي أولى عناية كبرى للنشاط الزراعي وما استتبعه من انجازات متنوعة ، كالتحكم في الثروة المائية واستغلالها بطرق فنية ، وانشاء الطرق وبناء المدن والضياع ، وتنويع المزروعات ، وحمل سكان الأرياف المغربية على الخضوع ، من أجل توفير الأمن لهذه الانشطة الاقتصادية الريفية ، وافساح المجال أمامها كي تنمو وتزدهر ، وانتهى من اعتقد هذا الاعتقاد الى التقليل من المساهمة القرطاجية أو الوطنية في هذا المجال[1] .

وغني عن التأكيد ان الاهتمام الروماني بالاقاليم الزراعية ، كمصدر حيوي للغلال ، سواء في بلاد المغرب أو في غيرها من الاقاليم الخاضعة للسيطرة الرومانية. تجسد - ذلك الاهتمام - في ظاهرة الاستيطان والعمران التي طبعت سياسة الرومان بطابع استغلالي قل أن ماثلهم فيه غيرهم من مؤسسي الامبراطوريات في التاريخ القديم .

مع التسليم بالظاهرة السابقة المتمثلة في التركيز على الريف والاهتمام بالأرض ، فان الاهتمام القرطاجي والمغربي بالأرض لا يقل شدا للانتباه عن مثيله الروماني ، بحيث لا يجوز التغاضي عنه ، أو التقليل من قيمته وفعاليته الاقتصادية والحضارية ، خلال الفترة السابقة للاستعمار الروماني . ذلك أنه ابتداء من القرن الخامس قبل الميلاد ، ظهر تحول ملحوظ في السياسة الاقتصادية للدولة القرطاجية ، اذ أن الحركة العسكرية التوسعية التي قامت بها خلال ذلك القرن ، مكنتها من السيطرة على الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط ، وتوسيع اقليمها على حساب الجيران المغاربة[2] ، ومن ثم فتحت قرطاجة لنفسها مجالات اقتصادية جديدة ، قرنت فيها النشاطات التجارية البرية والبحرية بالانشطة الزراعية ، حيث أخذت تظهر في المجتمع القرطاجي طبقة فلاحية تتخذ من أعمال الزراعة موردا أساسيا في معيشتها ، ومن ثم ظهرت الضياع الواسعة التي كانت

تشتغل فيها أعداد كبيرة من اليد العاملة الفلاحية ، « وأضحت الزراعة عند الفنيقيين العمليين علما وصناعة . ولخص قواعدها ماغون Magon الكاتب القرطاجي في كتاب ذائع الصيت . وشق الاهلون (الاهالي المغاربة) القنوات ، فأخصبت الأرض ، ونشأت فيها حدائق ذات بهجة وحقول من القمح والكروم وبساتين تنتج الزيتون والرومان والكمثري والكرز والتين »[3] .

ومن شواهد الازدهار الريفي الذي شهدته بلاد المغرب في العهد القرطاجي والوطني ، ان عدة مدن فلاحية قد ظهرت في المناطق الزراعية سواء في ضواحي قرطاجة ، أو في حوض مجردة ، مثل مدينة باجا أو في المملكة النوميدية ، كمدينة دقة وتبسة وسيرتا العاصمة ، أو في مملكة موريطانيا ، كوليلي وليكسوس ، وغير ذلك من المدن والقرى الفلاحية التي كانت نواة للمدن والمستعمرات الرومانية فيما بعد .

وتوجد في روايات الكتاب القدماء أوصاف شهود عيان ، عبروا فيها عن تأثرهم واعجابهم بالازدهار الزراعي القرطاجي ، يمكن اعتبار تلك الاوصاف شهادة على مدى المساهمة التي قدمها القرطاجيون للزراعة المغربية القديمة ، ومن تلك الاوصاف ما أورده ديودور الصقلي Diodore de sicile وهو ما يفيد بأن جنود أغاتوكليس Aghathocles أدهشهم الازدهار الزراعي الذي وجدوا عليه الريف القرطاجي ، وأخذت بأبصارهم مناظر أعداد الأبقار التابعة للنبلاء القرطاجيين[4] .

وسجل الكاتب الهيلينستي أبيانوس Appianus اعترافه بازدهار قرطاجة بعد الحرب البونية الثانية بفضل ريفها الخصيب ، وموارد تجارتها البحرية ، كما سجل الكاتب نفسه دهشة كاتو Cato[5] من النهضة الاقتصادية الكبرى التي حققتها قرطاجة ، بفضل الاهتمام بالأمور الزراعية .

أما المغاربة فان الزراعة كانت المهنة الرئيسية للمستقرين منهم أيام العهد القرطاجي ، سواء كانوا ضمن اقليم الدولة القرطاجية ، أو في

الممالك الوطنية (نوميديا وموريطانا) ، ذلك أن التجارة كانت من اختصاص القرطاجيين في معظم الاحوال .

ورغم ندرة المعلومات المتعلقة بوضعية الأرض وأساليب استغلالها ، فان الفلاحة بلغت شأوا بعيدا من التطور قبل الاحتلال الروماني ، بدليل رواج القمح النوميدي في أسواق البحر الأبيض المتوسط متجاوزا أسواق روما[6] ، ذلك أن هذا الرواج ما كان له أن يبلغ تلك المنزلة لولا غزارة الانتاج وجودته ، مما يؤكد الاهتمام الكبير الذي كانت توليه الممالك الوطنية للزراعة ، غير أن تأكيد بوليبيوس Polybius والكتاب القدماء الذين اعقبوه ، على أن نوميديا لم تعرف النشاط الزراعي الا على يد العاهل ماسنيسا[7] فيه مبالغة لا تصمد أمام التحليل المنطقي لطبيعة التطور ، ذلك أن الازدهار الفلاحي الذي بلغته نوميديا أيام ماسنيسا ، لا بد أن يكون نتيجة مراحل متعددة ، قطعتها أجيال وأجيال في الانتقال من حياة الترحل التي تعتمد على الرعي ، الى حياة الاستقرار وامتهان الفلاحة كنمط رئيسي للمعيشة ، وبعدها يأتي اتقان الاعمال الزراعية فيرتفع معدل الجودة والانتاج ، الى ذلك المستوى الذي وردت أوصافه في كتب بوليبيوس وغيره ، وسلم به بعض الباحثين المتأخرين أمثال قزيل وكامس .

2 ـ وضعية الأرض وأساليب النشاط الزراعي قبل العهد الروماني :

يكاد نظام الأرض يكون مجهولا خلال العهد القرطاجي ، فنحن لا نعلم عن التشريع المتعلق بالأرض شيئا ، كما يشمل جهلنا كيفية امتلاك الأرض وتوارثها ، وغير ذلك من ضروب الحيازة ، هذا فضلا عن الغموض الذي يسود معلوماتنا حول الأساليب التي كانت متبعة في الزراعة ، والبيئات الاجتماعيه الفلاحية ، وما يستتبع ذلك من أنواع العلاقات التي كانت قائمة بين ملاك الأراضي ومستغليها من جهة ، وبين الدولة والمجتمع الفلاحي من جهة ثانية . وليس هذا الغموض متعلقا فقط باقليم الدولة القرطاجية وحدها ، بل بجميع المنطقة المغربية آنذاك .

وأمام هذا فانه يصعب القيام ببحث جاد ، يستهدف استجلاء وضعية الأرض والنشاط الاقتصادي الزراعي الذي كان قائما حينذاك ، لأن عملا كهذا ، في مثل هذه الحالة ، لا بد وأن يتصف بالتعميم والتخمين والاستنتاج ، وهي أساليب كثيرا ما تقود الى مجانبة الحقائق التاريخية التي كانت معاشة في ذلك العهد . غير أن هناك اخبارا تتعلق باقليم قرطاجة تفيد بأن النظام الاقطاعي كان أسلوبا مألوفا أيام القرطاجيين ، حيث أن الأرض الزراعية كانت تابعة لملاك كبار ، أو أمراء يقيمون في المدن احيانا ، موكلين الأرض الى فلاحين يستغلونها عنهم بالوكالة ، أما الفلاحون المغاربة الاحرار والذين يملكون أراضي ملكية خاصة ، فهم مجبرون على دفع ربع المحاصيل الزراعية للدولة القرطاجية[8] . أما وضعية الأرض في الممالك الوطنية فيحيطها الصمت ، لذلك يتعذر الخوض في هذا الموضوع لغامض .

وعلى ما يبدو ، أخذت الدولة القرطاجية بنظام الاقطاع الآنف الذكر ، منذ القرن الخامس قبل الميلاد ، وذلك عندما امتد نفوذها نحو الداخل ، وبسطت سيطرتها على الأرض ، بعد أن كانت تلك الأرض تابعة للقبائل المغربية بشكل ملكية جماعية ، أو اقطاعية . ولا يستبعد بعض الباحثين أن تكون حركة المد تلك بداية للصراع بين أصحاب الأرض من المغاربة وبين القرطاجيين ، وأن لعنصر الأرض دورا في اذكاء ذلك الصراع الذي بلغ أوجه فيما يسمى بثورة الجنود المرتزقة عقب الحرب البونية الأولى ، غير أنه لا تتوفر المستندات التاريخية التي تنفي أو تثبت هذا الرأي[9] .

والواقع أن القرن الخامس شهد حركة استيطان قرطاجية ، عمت الشواطيء القرطاجية والنوميدية والموريطانية كذلك وفي هذا الصدد أشار المؤرخ الألماني مومسن Mommsen الى أن الدولة القرطاجية أرسلت ثلاثة آلاف معمر (من الليبيين والفينيقيين) الى الشواطيء الأطلسية دفعة واحدة ، كما أن أعدادا أخرى من المعمرين

الذين أتى بعضهم من الوطن الأم (فينيقية) ، قد أستوطنت شواطيء نوميديا الشمالية والشرقية ، حيث أسسوا مستعمرات ، ما لبثت أن أصبحت مدنا ذات شهرة كبيرة ، مثل سوسة ولمطة وعنابة(10) . الا أن المصادر لا تذكر فيما اذا كانت تلك الحملة من الاستيطان ، قد وجهت لغرض تجاري ، أم كان هدفها استعمار الأرض واستغلال الزراعة ، أو أن هدفها عسكري بالدرجة الأولى . ويبدوا من اتجاه تلك الحملة إلى السواحل ، أنها كانت ذات طابع تجاري تقليدي ، شأنها في ذلك شأن بقية المراكز الساحلية السابقة .

غير أن التطور الزراعي الذي سجل في المستعمرات الساحلية الشرقية كسوسة ولمطة وجزيرة كركنة ، حسب قول هيرودوت(11) ، يفرض احتمال وجود صلة لتلك المستعمرات بالانتاج الزراعي ، سواء كان المستوطنون في تلك المستعمرات قد باشروا النشاط الزراعي بأيديهم ، أم كانوا يشرفون عليه بواسطة وكلائهم من الفلاحين المغاربة والظاهر أن العناية بالزراعة بلغت درجة كبيرة أيام القرطاجيين ، بدليل أن أنظمة الري كانت منتشرة عندهم ، وهي الأنظمة التي وسع الرومان مجالاتها فيما بعد(12) .

ومن الاخبار التي لها علاقة بالاستيطان القرطاجي ، وهي قابلة للمناقشة،أن توغل القرطاجيين جنوبا وغربا على حساب جيرانهم ، قد أثار نزاعا طويلا على الحدود بين الطرفين ، مما حدا بقرطاجة الى اتخاذ اجراءات وقائية ، تمثلت في إقامة سياج من مراكز الحراسة الدائمة على طول الحدود المتنازع عليها(13) .

وهذه الظاهرة تدعو للمقارنة بين المراكز القرطاجية وبين تلك التي أنشأها الرومان فيما بعد في شكل مستعمرات لقدماء الجنود ، شملت مهامها الزراعة والدفاع . الا ان المقارنة تبقى غير مكتملة الشروط ، بسبب صعوبة التأكد من هوية المراكز القرطاجية التي ذكرها مومسن . ويظل السؤال قائما حول ما إذا كانت تلك المستعمرات تحمل طابع

المستعمرات العسكرية الفلاحية الرومانية ، أم كانت وظيفتها مقتصرة على الجانب العسكري لا غير ؟ .

ولعل طبيعة الاوضاع القرطاجية تجعلنا نميل الى القول ، بأن تلك المستعمرات كانت دفاعية أكثر منها فلاحية ، ذلك أن قرطاجة لم تكن تشكو ضعفا بشريا يضطرها الى توسيع مجالها الحيوي على حساب جيرانها المغاربة ، كما هو الحال بالنسبة للرومان فيما بعد . أي أن المشاكل الداخلية للدولة القرطاجية آنذاك ، لم تكن من ذلك النوع الذي عانت منه الدولة الرومانية فيما بعد ، مما دفع بها الى القيام بحركة استيطان فيما وراء البحر ، كما فعلت أيام كراكوس ، وقيصر ، واوغسطس ، وما بعدهم والدليل على خلو الدولة القرطاجية من هذا الصنف من المشاكل ، انها احتاجت الى مستوطنين من الوطن الأم (فنيقية) لوضعهم على الساحل النوميدي والقرطاجي ، كما سبق ذكره ، بالاضافة الى اتباعها نظام استئجار القوى البشرية لتحارب في صفوف قواتها أيام الحروب .

ومع الاقتناع بأن القرطاجيين قد ضموا أراضي مغربية واسعة ، ابتداء من القرن الخامس قبل الميلاد ـ وهي الأراضي التي كان ماسنيسا قد استرجع منها مساحات هامة فيما بعد ـ ، فان الكيفية التي كان القرطاجيون يستغلون بها تلك الأراضي لا يزال يشوبها الغموض . فهل كانت الأرض تستغل بالوكالة ، كما ذهب الى ذلك مومسن ، أم أن القرطاجيين كانوا يباشرون العمل بأيديهم في أراضيهم ؟ . وقد ذكر ماغون(14) ، أنه على القرطاجيين أن يختاروا بين الاقامة في الضياع وممارسة الأعمال الفلاحية ، أو يتركوا امتلاك الأراضي الزراعية ، إذا رغبوا في الاقامة في المدن .

الا أنه بالنظر الى قلة عدد العنصر البشري القرطاجي في المنطقة ، وانشغال القرطاجيين بنشاطات تجارية ومدنية وعسكرية ، فانه ليس بمستبعد أن يكون القرطاجيون قد أوكلوا أمر الأعمال الزراعية الى الفلاحين المغاربة الخاضعين لسيطرتهم .

3 ـ وضعية الأرض عقب سقوط الدولة القرطاجية :

نتيجة لانهاء الكيان القرطاجي ، تحولت أراضي القرطاجيين الى ايدي الرومان[15] وكان ضمن تلك الأراضي ممتلكات المغاربة الذين ساهموا في الدفاع عن قرطاجة بطريقة أو بأخرى . ومن ثم أعلن في ربيع عام 146 ق . م ، عن سيادة الشعب الروماني على أراضي المهزومين بصفة كلية ، ولم يستثن من هذا الاعتبار سوى الاقاليم والضياع الجنوبية والغربية ، التي كانت المملكة النوميدية قد استولت عليها ، في الفترة ما بين الحربين البونيتين الثانية والثالثة ، بالاضافة الى أراضي المدن الحرة Civitas liberas التي وقفت الى جانب الرومان في الحرب الأخيرة .

ويظهر أن الرومان قد أبقوا على الوضعية القديمة للأرض ، من حيث طرق الاستغلال على الأقل ، اذ ظل الفلاحون المغاربة يتابعون خدمة الأرض لصالح المنتصرين الرومان الى أيام كايوس كراكوس ، أي الى أن حل المستوطنون الرومان واللاتين بأرض الولاية الافريقية ، ليباشروا استغلال الأرض ، ويشرعوا في إزاحة الفلاحين المغاربة عنها .

ويبدو كذلك أن سياسة الرومان تجاه الأرض كانت على جانب من المرونة التي مكنت السلطة من تجنب المشاكل التي قد تنشأ عن الالحاق الكلي للارض الواقعة ضمن الولاية ، والشروع في استيطانها مباشرة بعد ذلك الالحاق . ولعل تلك المرونة تتجلى في اعلان الارض ملكا للشعب الروماني دون غيره ، مع ترك أغلب تلك الأرض في أيدي الفلاحين المغاربة يستغلونها لصالح الرومان بطرقهم الخاصة ، الى أن تمهد السبل للشروع في استعمارها وصبغها بصبغة رومانية محضة . وهو ما تحقق فيما بعد على يد قيصر ، ومن جاء بعده من أباطرة الدولة الرومانية .

غير أن تلك المرونة لم تمنع الرومان من القيام باجراءات في اقليم الولاية ، تناولت ترتيب وضعية الأرض والسكان ، حسب ما يقتضيه الواقع السياسي المترتب عن الاحتلال ، وما تفرضه الاهداف البعيدة المتوخاة من

الاستيلاء على المنطقة . ويبدو ان اللجنة العشرية Dicemvir[16] ـ التي أوكل اليها مجلس الشيوخ أمر القيام بتسوية مشاكل ما بعد الاحتلال عام 146 ق . م ـ كان من مهامها الاساسية وضع الخطوط العريضة لسياسة الدولة الرومانية تجاه الارض والناس في اقليم الولاية الرومانية .

ويستخلص من دراسة قزيل لاعمال تلك اللجنة ، أنها رتبت أراضي الولاية الافريقية على الوجه التالي :

1 ـ أراضي الدولة الرومانية : وهي التي كانت تملكها الدولة القرطاجية سابقا[17] ، بالاضافة الى اراضي المزارعين القرطاجيين ، ويشمل هذا الصنف من الاراضي جميع الممتلكات التي كانت تابعة لقرطاجة ، سواء منها ما كان بايدي المستغلين القرطاجيين أو ما كان تحت أيدى الفلاحين المغاربة بالوكالة .

2 ـ أراضي الفلاحين المغاربة الذين وقفوا على الحياد في الحرب البونية الثالثة : أبقت اللجنة العشرية على هذه الارض بين أيدي أصحابها في صورة ملكيات خاصة ، تجري عليها الضرائب العقارية ، بالاضافة الى ما كان مفروضا على اصحابها من ضرائب المهزومين . غير أن هذه الملكية كانت مؤقتة[18] بموجب القانون الاول الذي يدرج جميع أراضي الولاية تحت اسم الاملاك العامة للدولة الرومانية . فهذا الصنف من الارض كان معرضا للحجز عند الحاجة ، غير أن قوانين عام 111 ق . م ، أوجدت تعويضا لأصحاب هذه الارض عندما تنتزع منهم[19] ، لكن نوعية التعويض وشروطه غير معروفة ، وبالاضافة الى امكانية تعرض هذه الارض الى الحجز من طرف الدولة ، فان أصحابها كانوا لا يملكون حرية التصرف المطلق في الارض ، إذ لا يسمح لهم ببيع الارض الا لمن يندرجون في نفس الوضعية الاجتماعية التي تشملهم ، اي ان البيع لا يكون الا من طرف فلاح مغربي لآخر[20] ، ويشمل هذا الصنف من الاراضي ـ زيادة على اراضي المحايدين ـ املاك المغاربة الذين انحازوا في الحرب الى جانب القرطاجيين[21] .

3 ـ أراضي المدن الحرة Civitas libéras : وهي

المدن التي انحازت الى الرومان خلال الحرب الاخيرة ، وعددها سبع مدن ، تقع ستة منها على الساحل الشرقي لتونس الحالية ، اما المدينة السابعة فيعتقد أنها كانت غربي خليج بنزرت . وذكر قانون عام 111 ق.م تلك المدن منسوبة الى سكانها على الوجه التالي :

		Popularum liberarum
1 ـ اهل اوتيكا	(Utica)	Uticensium
2 ـ اهل سوسة	(Souse)	Hadrumetinorum
3 ـ اهل رأس ديماس	(Thapsus)	THampsitanorum
4 ـ اهل لمطة	(Leptis minus)	Leptitanorum
5 ـ اهل اشولة	(Achulla)	Aquillitanorum
6 ـ اهل أوسلة	(Uzalis)	Usalitanorum
7 ـ اهل تيوداليس (22)	(Theudalis)	Teudalensium

أما اراضي المدن الحرة المذكورة أعلاه ، فقد أبقت عليها اللجنة بين أيدي أصحابها ، كما أعفتها من كل الاجراءات الجبائية التي تدل على السيطرة الرومانية المباشرة على الارض ، وبذلك نجت من الضرائب العقارية ، كما نجا اصحابها من ضريبة المهزومين التي فرضت على جميع سكان الولاية الآخرين (23) .

بهذا التصنيف ضمن الرومان لأنفسهم السيطرة المباشرة على أراضي الولاية في الحالتين الاولى والثانية ، بينما تنازلوا عن هذه السيطرة لحلفائهم في الحالة الثالثة ، اعترافا بفضلهم على الرومان في الحرب الاخيرة ، ونظرا للدور الاقتصادي الذي كانوا يقومون به في الولاية لصالح الرومان ، بالاضافة الى ما يمكن أن تحققه سياسة الترغيب نحو سكان تلك المدن من نجاح ، حيث تركت لهم تلك السياسة أبواب الاندماج في المجتمع الروماني مفتوحة ، إذا أرادوا الدخول في الاطار الجديد ، وبذلك يتم إدماجهم ضمن المؤسسات المدنية التي اقامها الرومان في الولاية .

4 ـ المشاريع السابقة للاستيطان الروماني ـ الاجراءات التمهيدية :

لئن تأخر اهتمام القرطاجيين باستغلال الارض نسبيا ، فقد اختلف الرومان عنهم في هذا المجال ، حيث كان تركيزهم على الانتفاع بالارض ملحوظا منذ البداية ، رغم ما يبدو من تأجيلهم لمشاريع الاستيطان الى حين .

وأرجو ألا أكون مجانبا للصواب ان صنفت مظاهر الاهتمام الروماني بالارض ، في الولاية الافريقية ، على الأوجه الثلاثة التالية :

1 ـ أول تلك الوجوه ، يمكن أن نلمسه في محاولة الاستفادة من الخبرة القرطاجية في ميدان الزراعة ، لا في شمال افريقيا وحدها ، بل في ايطاليا كذلك .

2 ـ وثاني تلك المظاهر يتجلى في اطلاق يد التجار الرومان ، من رجال أعمال ووكلاء وجباة ضرائب ، ليستحوذوا على المنتوجات الفلاحية داخل الولاية الرومانية وخارجها ، قصد نقل تلك المنتوجات الى الشعب الروماني فيما وراء البحر .

3 ـ ويظهر الوجه الثالث في تلك العناية الفنية بالارض ، من حيث إحصاؤها ، واستصلاح القابل منها للاستغلال ، وتجنيد الطاقة المائية ، وتنويع الانتاج الزراعي في الولاية القديمة أولا ، ثم تعميم العملية على باقي الولايات الرومانية في بلاد المغرب حالما تضم .

بخصوص مظهر الاستفادة الاول ، يمكن ذكر كتاب ماغون Magon في الفلاحة كمثال حي على الرغبة الرومانية الحثيثة في الانتفاع بتجارب مغلوبيهم . فلقد أمر مجلس الشيوخ الروماني بترجمة هذا الكتاب فور وقوعه بين يديه . وحول هذه الترجمة ، ذكر بلين الاكبر ان مجلس الشيوخ في روما عهد بترجمة الكتاب الى من يجيدون اللغة البونية . وقد اختير لهذه المهمة احد النبلاء المدعو سيلانوس D. Silanus ، ويذكر بلين أيضا ، ان كانو الكبير كان قد نقل هذا الكتاب الى اللاتينية قبل وفاته . كما يضيف صاحب الرواية ان كاسيوس Cassius الاغريقي ، الذي كان يستوطن اوتيكا ، قد أعاد ترجمة الكتاب المذكور

فيما بعد ، وذلك في عهد سيكتيليوس Sixtilius حاكم الولاية الافريقية لعام 88 ق . م [24] ، نظرا لاهمية الكتاب في مجال الزراعة .

أما وجه استغلال الارض غير المباشر ، فيتضح في تلك الاعداد الكبيرة من الرومان الذين استقروا في الولاية دون أن يمتهنوا الزراعة أو الجندية ، ومنهم التجار ، وجباة الضرائب ، والموظفون في مصالح الاحصاء ، والمشرفون على تقييم المحاصيل الزراعية وتقدير النسب المتعين على الفلاحين المغاربة دفعها للدولة الرومانية [25] . لقد احتل التجار الرومان مكان التجار القرطاجيين ، مركزين نشاطهم على المتاجرة في القمح الافريقي والنوميدي المرغوب في الاسواق الايطالية وبلاد الاغريق ، ثم ان عدد اولئك التجار قد تزايد مع الايام ، وارتفعت منزلتهم في الولاية وخارجها ، فاصبحوا يكونون طبقة ممتازة ، حتى انهم توصلوا الى التدخل في الشؤون السياسية الداخلية لمملكة نوميديا ، بدليل ما فعلوه عام 112 ق.م اثناء النزاع بين يوغرطة وابن عمه اذربعل ، حيث شكل التجار الرومان في سيرتا قوة دفاعية ضد زحف يوغرطة على المدينة . وقد كررت طبقة التجار هذه نفس الموقف خلال حملة قيصر على افريقيا ، لما رأوا في قيصر خطرا يهدد مصالحهم وامتيازاتهم في الولاية ، فوقفوا ضده وجندوا انفسهم الى جانب اتباع بومبي ، ويذكر ان عددهم في مدينة اوتيكا وحدها كان يتجاوز ثلاث مائة ممثل تجاري آنذاك [26] .

أما الامر الثالث المتعلق بالعناية الفنية بالارض ، فتتمثل أولى خطواته في عمليات المسح ، واحصاء الارض ، وتصنيفها حسب الاهمية ، واخضاعها للقوانين الرومانية المتعلقة بالحيازة ، وما اليها . غير أن الوثائق المتعلقة بهذه العملية الهامة لا تغطي الفترة الاولى من الاستعمار الروماني ، خاصة منها ما بين انشاء ولاية افريقيا ، ومشروع كايوس كراكوس الاستيطاني في عام 123 ق . م . اذ أن هذه الفترة تتصف بشح المعلومات وبندرة الوثائق ، ومن ثم ظل يحيق بها الغموض الذي يشمل الاخبار المتعلقة بنشاط الرومان الاستيطاني في هذه الحقبة الزمنية ، واساليب

استغلالهم للارض ، ومدى ما حققوه فيها من تغييرات تخص المستغلين والمستخدمين على السواء .

أمام هذا الغموض يصعب التأكد من كون عمليات المسح واحصاء الارض ، وتقسيمها الى وحدات مئوية Centurium قد تمت منذ انشاء الولاية ، حتى أن بعض الباحثين يؤكد نفي هذه العملية قبل عام 123 [27] . أي ان اجراءات تقسيم الاراضي على المعمرين الذين استصحبهم كايوس كراكوس ، هو الذي حتم القيام بالمسح لتحديد المساحات الممنوحة لاولئك المعمرين على الطريقة الرومانية ، وحسب ما حدده قانون التمليك الذي استصدره زعيم الاصلاح الزراعي .

وقد شمل الاحصاء جميع الاراضي الزراعية في الولاية ، سواء منها تلك التي انتقلت الى ملكية الدولة الرومانية مباشرة بعد عام 146 ق . م ، أو التي أبقى عليها الرومان في حيازة الفلاحين المغاربة المسالمين مؤقتا [28] .

ولتمييز النوعين السابقين عن بعضهما ، اقتضى نظام التقسيم أن تكون قطع الارض المئوية مختلفة الاشكال . وقد افترض شلتن Schelten أن يكون الشكل المربع دالا على املاك الدولة الرومانية المعفاة من الضرائب ، بينما ميزت الاشكال المستطيلة الاراضي الخاضعة للضرائب ، وهي التي كانت بيد الفلاحين المغاربة ، غير أن هذا الافتراض يتعارض مع الطريقة المتبعة في تقسيم الاراضي بايطاليا ، اذ كانت الاشكال المربعة والمستطيلة لا تعني تمايزا ما في نوعية الملكيات ، من حيث الوضعية القانونية للارض . ويذكر شلتن نفسه ان بعض المستعمرات في ايطاليا كانت أراضيها مربعة الشكل ، في حين كانت اراضي مستعمرات أخرى مستطيلة [29] .

ويبدو أن هناك عاملين كان لهما أثر على هذا التنوع في اشكال المساحات الزراعية المقننة ، يرجع أحدهما الى قيمة الارض من حيث الجودة ، ويعود الثاني الى المظهر الطوبغرافي الذي كانت توجد عليه المساحة الخاضعة للتقسيم المئوي ، بدليل أن مجموعة الوحدات المئوية في

مستعمرة قرطاجة غلب عليها الشكل المربع ، بينما كانت مجموعة وحدات مستعمرة العالية (الواقعة شمال سيدي بوسعيد بتونس) ذات أشكال مستطيلة ومربعة[30] .

ثم ان جميع الأراضي في الولايات الرومانية خلال العهد الامبراطوري قد خضعت للتقسيم المئوي المتعدد الأشكال ، ولا يمكن أن تكون جميع تلك الأراضي قد أعفيت من الضرائب ، بل بالعكس ، حيث أن أراضي المستعمرات المعفاة من الضرائب في ولاية افريقيا ، كانت قليلة جدا ، بالمقارنة مع مثيلاتها في ايطاليا ، اذ كانت أغلب أراضي الولاية في وضعية الممتلكات الخاضعة للضرائب المباشرة Ager Vectigalis[31] .

وسواء كانت عمليات احصاء الأراضي ، وتقسيمها مئويا في الولاية الافريقية ، قد بدأت منذ إنشاء الولاية ، أو تأجلت الى عهد كراكوس ، فان تلك العملية قد تعرض انجازها للتلف والتشويه في قرطاجة ، خلال المدة التي تلت التجربة الكراكية ، أي حتى عهد اوغسطس ، لأن هذا الأخير اضطر لاعادة العمل مجددا في اقليم قرطاجة نفسه[32] .

والملاحظ أن المعلومات المتعلقة باحصاء الأرض المغربية على يد الرومان ، وتجزئتها الى وحدات انتاجية ، لا تغطي جميع المنطقة المغربية ، فتلك المعلومات مركزة أساسا على المنطقة الشرقية بولاية أفريقيا ، ثم تبدأ هذه المعلومات في التناقص ، كلما اتجهنا غربا ، حتى لتكاد تنعدم بخصوص الأقاليم الزراعية الأخرى التي شملها الاستيطان الروماني ، واستغلت استغلالا مكثفا في العهد الامبراطوري . ذلك أنه الى جانب ندرة النصوص ، هناك نقص أثري حول هذا الموضوع فيما يتعلق بمنطقة نوميديا وموريطانيا على الخصوص ، ومع أن المسح الجوي الأثري (بواسطة التصوير) قد حقق بعض النتائج الهامة في كل من اقليم قرطاجة وجنوب شرق نوميديا[33] ، حيث تم الكشف بفضله ، عن معالم الحدود بين الملكيات ، فان نتائج هذا النوع لم تسجل الى حد الآن في الاقاليم الزراعية بالسهول النوميدية والموريطانية .

أما من حيث المدى الذي بلغته سيطرة الرومان على الارض ببلاد المغرب ، فيظهر أن النفوذ الروماني الذي كان ممارسا على الارض لم يغط جميع المساحات الزراعية المغربية في فجر الامبراطورية ، ذلك أنه الى عهد الامبراطور تراجانوس Trajanus كانت البلاد لا تزال في حالة حرب يشق أهلها عصا الطاعة للرومان باستمرار .

غير أنه على الرغم من الصعوبة التي كان يواجهها الرومان ، في محاولاتهم لتوسيع نطاق سيطرتهم على الأراضي الزراعية ، فانه يبدو أن مسألة الأمن لم تكن تشكل عائقا كبيرا يحول دون استغلال الرومان للارض الواقعة تحت أيديهم . ذلك أن المؤسسة العسكرية قد وفرت لعمليات الاستغلال الزراعي شروط الأمن المناسبة .

وتتجلى تلك الشروط في ذلك الحزام الدفاعي الذي شيد على التخوم ، في مراحل متماثلة مع مراحل المد الروماني جنوبا وغربا ، وهذا الحزام الدفاعي هو ما اصطلح على تسميته بالحدود Limes . أما قوامه فيتضمن منطقة يتراوح عمقها بين خمسين ومائة كيلومتر ، تتخللها شبكة من الطرق والحصون العسكرية الجاثمة على أنسب النقاط الملائمة للدفاع والمراقبة ، ومستعمرات قدماء الجنود المسلحين ، والخنادق والاسوار[34] بالاضافة الى عمليات عسكرية وقائية مكملة ، تتمثل في محاصرة القبائل المغربية المجاورة أو ازاحتها عن مواطنها التي يمكن منها أن تهدد الأمن الروماني ، أو تتسلل منها الى أراضي المستعمرات الممتدة على السهول الخصبة . هذا فضلا عن الحملات العسكرية الرومانية التي كانت تنطلق من حين لآخر الى ما وراء الحدود ، في نطاق النشاطات العسكرية الترهيبية ، والتي تستهدف تشتيت التجمعات الوطنية ، والمس من معنويات السكان ، الذين كان الكثير منهم قد أخرجوا من ارضهم وديارهم قهرا ورمي بهم خارج الحدود الرومانية[35] .

إن عملا مماثلا لهذا تكرر في العصر الحديث ، وبالتحديد في الجزائر ، أيام الاستعمار الفرنسي ، حيث اغتصبت السلطة الاستعمارية الأراضي

الزراعية الجيدة من اصحابها ، بدعوى مشاركتهم في الثورة ضد الوجود الفرنسي في البلاد ، وسلمت تلك الاراضي الى المعمرين الوافدين من فرنسا . ومن غرائب الصدف التاريخية ان مصير الفلاحين الوطنيين كان متشابها في كلتا الحالتين ، الرومانية قديما والفرنسية حديثا ، حيث أمَّ الفلاحون المبعدون المناطق الجبلية الفقيرة والحواف الشمالية للصحراء .

وصفوة القول ، ان الارض عموما مرت بتطورات ، ارتبطت بالاحداث السياسية التي اجتازتها المنطقة المغربية ، وأنه على الرغم من جهلنا بالقوانين التي كانت تخضع لها الارض ، وبأساليب استغلال تلك الارض ، في العهد القرطاجي والوطني ، الا أنه يمكن القول ان تحمس الرومان للارض ، وحرصهم على الاستفادة من تجارب القرطاجيين في مجال الزراعة ، شيء لا يمكن تجاهله ، فضلا عن الانظمة التي شرعوا في وضعها للارض ولأساليب استغلالها ، قصد تطوير انتاج الغلال ، وجعله في خدمة الاقتصاد الروماني ، سواء كان ذلك بواسطة الفلاحين المغاربة الذين ابقت عليهم روما في وضعية المنتجين الاتباع ، أو بواسطة المستوطنين الذين أوفدتهم الدولة الرومانية الى المنطقة في نطاق سياسة الاستيطان العامة التي سيأتي بحثها في الفصل الآتي .

5 – هوامش الفصل الرابع

1 – Toutain (J.), C.R.T., P. 38.

وكذلك : Camps (H.F.), O.H.A.R., P. 10.

وبخصوص الدور الذي لعبته زراعة الزيتون في المنطقة على ايدي الرومان في المجال الاقتصادي والسياسي والعسكري ، تقول الباحثة :

"La culture de l'Olivier fut développée par les romains pour les raison politiques qui font qu'élle joue un rôle aussi important dans la pacification et mise en valeur que dans la vie économique de l'Afrique du nord romaine".
Mamm (Th. histoire romaine, T: 3, PP. 11-12.

2 – يقول ما ملخصه :
« ان قرطاجة قد تحولت في هذه الفترة من مستأجرة للارض التي قامت عليها الى مالكة للمنطقة » .

3 – ويل ديورانت ، قصة الحضارة ، المجلد الثالث (ترجمة بدران) ، الجزء الاول (قيصر والمسيح) ، ص . 85 .

4 – الفقرة 20 Diodor de sicil, la Bibléothèque historique
حدثت المشاهدة عام 310 ق . م ، اثناء حملة اغاتوكليس السيراكوزي على الشواطيء الشرقية لاقليم قرطاجة .

5 – Gsell (St.), H.A.A.N., T: 4, PP. 2-3.

6 – Camps (G.), Massinissa, (Libyca 1961), PP. 196-200.

7 – Gsell (St.), H.A.A.N., T: 5, P. 187.
انظر الهامش الثاني (2) الذي ينسب فيه المؤلف النص الى بوليبيوس ، والنص كالتالي :

"Avant lui toute la numidie était inutile et considérée comme incapable par sa nature de donner des produits cultivés. C"est lui le premier, lui montra qu'elle peut donner tous".

Momin (Th.), Histoire romaine, T: 3, PP. 11-12.

8 – يقول مومسن في هذا الموضوع .

Adoptés par la force des armes, ces libres paysans furent reduits à la condition de fellahs tributaires remettant à leur maitres la quatrieme partie des fruits".

9 – يشترك قزيل وومسن في هذا الظن ، راجع الفصل الاول من هذا البحث .

10 – Mommsen (Th.), histoire romaine, T: 3, P. 13.

11 – Gsell (St.), Hérodote, T.R.H.A.A.N., P. 85.

12 – Toutain (J.), C.R.T., P. 74.
يقول في هذا الموضوع :

"Que les plus anciens habitants de l'Afrique et en particulier les colons phiniciens établis sur la côte, aient bâti de vastes citernes et de grands réservoirs, je ne le conteste pas".

Mommsen (Th.), histoire romaine, T: 3, P. 12.

13 – يقول مومسن :
"Une ligne de postes avancés assura la tranquilité de la zone intérieure".

14 ـ هشام الصفدي ، مجلة الأصالة ، العدد الخاص بالذكرى العاشرة للاستقلال (1972) ص . 163 ..
نص ماغون : «ينبغي على من يشتري أرضا زراعية أن يبيع بيته في المدينة ، حتى لا تبقى لديه الرغبة التي تدفعه الى عبادة (آلهة) منزله في المدينة بدلا من عبادة (الهة) الريف . والمرء الذي يجد منفعة أكبر في مقره في المدينة ليس بحاجة لامتلاك أراضي في الريف» .

Gsell (St.), H.A.A.N., T : 7, P. 74

15 ـ يقول في هذا الموضوع :

"A l'exception des territoires des villes libres, tout le sol de la province créé en l'an 146 devint alors un domaine de peuple romain (ager publicus populi romani)".

16 ـ هي لجنة تتكون من عشرة شيوخ يتمتعون بالعضوية في مجلس الشيوخ الروماني أرسلت من طرف هذا الأخير الى افريقيا عقب تحطيم قرطاجة (ربيع 146 ق . م) لوضع ترتيبات للولاية الرومانية في اقليم قرطاجة ، وكانت تلك اللجنة تعمل تحت إشراف سيبيوس الايميلي ، القنصل والقائد العام للجيش الروماني في الحرب البونية الثالثة .

17 ـ Gsell (St.), H.A.A.N., T: 7, PP. 48-49.

18 ـ جوليان ، المصدر السابق ، ص . 150 .

19 ـ نفس المصدر ، ص . 49 Gsell (St.),

20 ـ نفس المصدر ، ص . 78 ـ 79 Gsell (St.),

21 ـ نفس المصدر ، ص . 42 Gsell (St.),

22 ـ نفس المصدر ، ص.41 Gsell (St.),

23 ـ يقول قزيل في هذه القضية :

"Leur territoire ne fut pas compris dans le domaine de peuple romaine"... Ces territoires, sur lesquels Rome ne se reconnaissait aucun droit de propriété, était exempt de tout impôt foncier".

24 ـ نفس المصدر ، جزء 4 ، ص . 5 Gsell (St.),

25 ـ Albertini (E.), l'Afrique romaine, P. 36.

26 ـ نفس المصدر ، جزء 6 ، ص . 72 (نقلا عن بلوتارخ) Gsell (St.),

27 ـ Schelten (M.A.), l'arpantage romaine en Tunisie, (Bulletin archéologique T: 20, 1902), PP. 151-152.

28 ـ نفس المصدر ، ص . 131 .

29 ـ نفس المصدر ، ص . 132 ، وكذلك ص . 134 .

30 ـ انظر الخريطة التوضيحية التي أوردها صاحب المقال السابق في نهاية المجلة المذكورة .

31 ـ أورد توتان Toutain في كتابه السالف الذكر ، تصنيفا لوضعية المدن بمختلف صورها ، ص. 334 .

32 ـ انظر مقال شلتن Schelten في المصدر السابق ، ص . 160 .

33 ـ هو ما قام به بعض الباحثين أمثال ج . باراديز Baradez ، في كتابه (Fossatum Africae)

34 ـ Harmand (L.), l'Occident romaine, PP. 199-200.

وكذلك : Petit (P.), la paix romaine, P. 110.

35 ـ جوليان ، المصدر السابق ، ص . 117 .

الفصـل الخـامـس

سياسة الاستيطان ـ تطورها ومراحلها

1 ـ من سقوط قرطاجة الى حملة كايوس كراكوس :

لا يعرف عن الدولة الرومانية انها فتحت أبواب الاستيطان ببلاد المغرب في وجه الفلاحين الرومان واللاتين قبل عام 123 ق . م . وهو العام الذي تمكن فيه النائب الشعبي Tribunus plebis كايوس كراكوس ، من اقناع مجلس الشيوخ Senatus بانشاء أول مستعمرة رومانية باقليم قرطاجة ، لايواء ستة آلاف من الفلاحين الرومان ، في نطاق المشاريع الاصلاحية التي تقدم بها هذا النائب .

ويدل هذا التأخير في مجال الاستيطان على أن سياسة الجمهورية الرومانية تجاه الولاية الافريقية كانت مقتصرة على فكرة ضمان الأمن ، واستمرار السيطرة ، وتوفير الشروط المساعدة على الانتفاع بالغلال التي تدرها الولاية على الشعب الروماني ، الذي يتزايد جمهوره المستهلك للحبوب باستمرار .

وفيما يتعلق بالارض ، فيظهر أنها حافظت على الوضع السابق الموروث عن العهد القرطاجي . إذ لم يجهد مجلس الشيوخ نفسه في محاولات لتغيير الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والحضارية للمنطقة التابعة للرومان ببلاد المغرب[1] .

غير أنه رغم الاتفاق على كون سياسة الاستيطان لم تدشن الا على يد ذلك المصلح الروماني[2] ، فان هناك موضوعا يثير التساؤل يتمثل في مصير المستعمرات القرطاجية التي ورثها الرومان عن الاقطاعيين القرطاجيين . فهل سلمت تلك المستعمرات أو الضياع الى المغاربة كي يستغلوها لصالح الرومان ، كما ذكر قزيل[3] ؟ ، أم بيعت بالمزاد الى ملاك رومان ؟ ، واذا كان الأمر على الصورة الثانية ، فهل أقام أولئك الملاك الرومان بتلك الضياع وباشروا العمل فيها بأيديهم ، أم استغنوا عن ذلك مكتفين بادراجها ضمن نظام الوكالة ؟ .

والواقع أن الضياع القرطاجية ، بلغت درجة معتبرة من الازدهار في أواخر أيام الدولة القرطاجية ، حسب ما وصفها به كتاب إغريق ، يمكن أن يكون ويل ديورانت قد نقل عنهم الصورة التالية : « نشأت لاهل قرطاجة ضياع واسعة ، كان يعمل في بعضها عشرون ألف رجل »[4] ..

سواء كان هذا الوصف ينطبق على الواقع الذي كانت عليه الضياع القرطاجية ، أو فيه مبالغة ، فان وحدة انتاجية هذه بعض صفاتها ، ليس بمستبعد أن تجتذب الرومان للاقامة بها . غير أن المصادر لا تتوفر حول هذا الموضوع ، ومن ثم يصعب التعرف عن مصير تلك الضياع ، وعن التغييرات التي يكون أحدثها الرومان في أساليب الانتاج بها خلال الفترة التي أعقبت سقوط الدولة القرطاجية ، وامتدت ثلاثا وعشرين سنة ونيف .

حدا هذا التباطؤ في سياسة الاستيطان الرومانية تجاه الولاية الافريقية بعض المهتمين بتاريخ افريقيا الرومانية إلى الاعتقاد في أن الرومان لم يكن في نيتهم أن يتوسعوا الى ما وراء الحدود التي ورثوها عن الدولة القرطاجية . ومن هؤلاء الباحث كريستيان كورتوا Chrestien courtois

الذي بنى رأيه على مبادرة القائد الروماني سيبيون الايميلي المتمثلة في حفر الخندق Fossa Regia على الحدود المغربية للولاية ، ملاحظا ان سيبيون ما فعل ذلك الا ليضع حدودا ثابتة ودائمة لما ورثه الشعب الروماني المنتصر عن الشعب القرطاجي المنهزم ، وأنه لا يوجد ما يفسر ذلك الا سياسة الفتح المحدود[5] .

والواقع أن في نظر السياسة الرومانية الافريقية ما يبعث على هذا الاعتقاد ، فمجلس الشيوخ مثلا كان يظهر التحفظ الشديد إزاء مشاريع الاستيطان التي كانت تقدم اليه ، مثل مشروع كراكوس . كما أن نتائج حروب يوغرطة تغري بالذهاب مذهب كورتوا ، حيث أنه رغم ما تجشمته روما من تضحيات في تلك الحروب ، فان غنائمها منها كانت على جانب كبير من الضآلة ، اذ لم تقبل روما على مد حدود ولايتها الافريقية على حساب مملكة نوميديا المهزومة ، رغم توفر الشروط التي تسهل اتخاذ مثل هذا الاجراء .

غير أنه ينبغي التحذر من هذا النوع من الاستنتاج ، لأن سياسة مجلس الشيوخ الروماني كانت تتصف دائما بالتحفظ فيما يخص ضم الاقاليم الجديدة ، والمجلس لا يتردد في اختيار اسلوب التحالف ، وانشاء سياجات من الممالك والامارات المحلية التابعة ، عن ضم تلك الممالك والامارات قبل تهيئة الظروف الكفيلة بمنع أي تردد أو انتكاس[6] .

هذا بالاضافة الى تحكم الظروف الداخلية للسياسة الرومانية فيما يخطوه المجلس من خطوات على مستوى السياسة الخارجية ، ومن ثم فانه إذا كان القائد سيبيون الايميلي قد اتخذ ذلك الموقف العسكري المتعلق بحفر الخندق ، فلانه أبى أن يترك حدود الولاية مفتوحة في وجه القبائل المغربية المجاورة المتعودة على التنقل عبر اقليم قرطاجة المجاور لمواطنها ، فضلا عن استجابة القائد المذكور لرغبة مجلس الشيوخ في تثبيت الحدود حتى يتسنى للرومان معرفة « ما لهم وما ليس لهم » من المنطقة المغربية ، هذا بالاضافة الى ما تقتضيه الاجراءات التي تمليها وراثة إقليم دولة ، والتي يأتي في مقدمتها ضبط حدود الاقليم .

وهناك فيما يبدو ، عامل آخر لم يثر اهتمام المشتغلين بدراسة التوسع الروماني في بلاد المغرب ، يكمن هذا العامل في موقف قبائل الجيتول Gétules المتوطنة على الحدود الغربية الجنوبية لولاية افريقيا الرومانية . إنه لا يستبعد أن يكون الخندق قد حفر اتقاء لهجومات تلك القبائل على تراب الولاية ، خاصة وأن معظم تلك القبائل كان يمتهن الرعي الذي يتطلب الحركة وعدم الاستقرار في مناطق معينة طيلة فصول السنة[7] . فهم لا شك كانوا يقومون بعملية الرعي الدوري الذي يستدعي التحرك شمالا وشرقا تبعا لفصول السنة ، كما هو شأن رعاة المنطقة الى الآن ، ولا يعزب عن الذهن أن حركة الرعاة تمثل خطرا على الاراضي الزراعية التي يمتلكها الفلاحون المستقرون ، الذين كانوا يخشون تلك الحركة ويقاومونها ، ولعل ما قام به القائد سيبيون يدخل في هذا الاطار ، ومن ثم فحفر الخندق يندرج ضمن الأغراض العسكرية الدفاعية البحتة ، وليس له دلالة تشير الى وضع حد نهائي للتوسع الروماني في المنطقة المغربية ؟ .

ومن جهة أخرى ، يلاحظ جوليان ان تكالب الرأسماليين الرومان على أراضي المغاربة (البربر) هو الذي أدى الى ضم نوميديا ، ثم موريطانيا « وهو أمر لا تبرره أية ضرورة عسكرية »[8] . وعلى الرغم مما يبدو في ملاحظة جوليان من الاقتضاب ، فانها تشير بقوة الى عنصر الفلاحة المغربية في جذب أنظار الرومان الى الارض ، على أن تشتغل بطريقة أكثر نجاعة ، كتلك التي اقترحها كايوس كراكوس . فالارض هي الأساس الذي تقوم عليه حركة الاستيطان ، وهذه بدورها تمكن الفلاحين الرومان من مباشرة عملية الاستغلال بأيديهم ، بدلا من الاعتماد على نظام الوكالة ، فضلا عن أن تواجد الفلاحين الرومان في الارض المغربية ، من شأنه أن يكون بيئة اجتماعية رومانية ، تعمل على اجتذاب الانسان المغربي والتأثير فيه ، ومن ثم يمتد بساط « الرومنة » الى ما وراء البحر ، لأن المستعمرات الرومانية تكون قد ثبتت أوتادا قوية لهذا البساط[9] .

2 ـ المرحلة الأولى للاستيطان وعلاقاتها بالاوضاع الاقتصادية والاجتماعية في الدولة الرومانية .

استنادا الى ما تقدم ، يمكن اعتبار سياسة الاستيطان ، فيما وراء البحر ، ظاهرة جديدة طرأت على السياسة الخارجية الرومانية . وذلك بالقياس لما اتصفت به مواقف مجلس الشيوخ من تحفظ تجاه الولايات .

لكن هذه السياسة ، تعد من جهة أخرى ، نتيجة حتمية للأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي بلغتها الحياة في روما أيام حركة الاصلاح الكراكية ، ذلك أن مشاريع منح الجنسية الرومانية للاتين . والحقوق اللاتينية للايطاليين ، وفقر الريف الايطالي من الفلاحين الصغار وعمال الارض الاحرار ، وتزايد أعداد العاطلين عن العمل في مدينة روما[10] ، كل هذه معضلات حدت بنواب العامة Tribunus Plebis أن يقترحوا مشاريع اصلاحية لتجنب الأخطار التي قد تنجر عن تلك الاوضاع السيئة المنذرة بالانفجار .

ولعل أهم تلك المشاكل التي أوحت الى نواب العامة بمشاريع الاصلاح الزراعي ، ثم إنشاء المستعمرات خارج الوطن الام ، مشاكل صغار الفلاحين ، حيث أنه طرأ على الريف الايطالي تغير واضح بعد حركة التوسع الامبريالي الروماني ، وذلك ابتداء من منتصف القرن الثاني قبل الميلاد ، تمثل ذلك التغير في اتساع المساحات الزراعية التي يستحوذ عليها الملاك الكبار ، الى جانب تناقص الملكيات الصغيرة التي امتصتها الملكيات الكبرى[11] . ونتج عن ذلك اندفاع الفلاحين الصغار نحو المدن ، وخاصة صوب روما ، طلبا للعيش . كما استغنى الفلاحون الكبار عن اليد العاملة الاجيرة ، واكتفوا بما توفره لهم الفتوحات العسكرية الرومانية من اعداد العبيد الهائلة ، حتى أصبح من المتيسر الحصول على ما يغطي حاجة المزارع من اليد العاملة ، دون تكاليف كثيرة . ومن ثم كان على عمال الارض الاحرار أن يغادروا الريف ليبحثوا لأنفسهم عن مكان للرزق في المدينة[12]

ومن المظاهر التي يقال إنها حزت في نفس تيبريوس سمبرونيوس Tiberius Sempronius Gracchus كراكوس زعيم الاصلاح الزراعي ، وأثارت غيرته الوطنية ، أنه اندهش من مشاهد المزارع الايطالية ، وهي تعج بالعبيد من مختلف الجنسيات ، بالاضافة الى ندرة الفلاحين الصغار والاجراء ، وهي مشاهد نبهته الى الخطر الذي يتهدد الفلاحة اذا استمر الوضع كذلك . لأن اليد العاملة من الرقيق لا تربطها بالارض روابط من النوع الذي يكون بين الفلاح الحر وأرضه ، ومن ثم تصور تيبريوس ، أن تدهور الريف الايطالي أمر قريب الحدوث خاصة وأن الكثير من العبيد لا يجيدون أعمال الفلاحة[13] ، بالاضافة الى روح الكراهية والثورة التي تملأ صدورهم على أسيادهم الرومان ، الأمر الذي جعلهم لا يترددون في الثورة على أولئك الاسياد والانتقام منهم بشتى الوسائل . وهكذا رأى تيبريوس كراكوس أنه لتفادي الكارثة لا بد من القيام بعمل اصلاحي لانقاذ الموقف ، وابعاد عوامل التصدع الاقتصادي والاجتماعي عن الشعب الروماني .

وقد سبق تيبريوس كراكوس أخاه كايوس كراكوس Gaius Gracchus في مجال الاصلاح الزراعي . الا أن انجازاته لم تتجاوز الريف الايطالي . لقد تمكن تيبريوس من إقناع الجمعية القبلية Comitia Tributa الرومانية ومجلس الشيوخ لاستصدار قانون يحدد الملكية الزراعية ، عرف بقانون سمبرونيا الفلاحي Lex sempronia Agraria ، نص هذا القانون على الا تتجاوز ملكية الفرد من الاراضي 500 يوجرة Iugera : أي حوالي 250 هكتارا[14] ، كما توصل تيبريوس الى تأليف لجنة الاصلاح الزراعي الثلاثية Triumviri Agris Indicandis assignandis عام 133 ق . م ، لتضطلع بمهمة الاشراف على تطبيق القانون السابق الذكر واعادة توزيع الاراضي على صغار الفلاحين[15] ، وكان من نتائج تلك الانجازات الاصلاحية اذ

استفاد جمهور الفلاحين الصغار في ايطاليا الذين كانوا يثقلون كاهل الدولة ، ويشكلون مصدر شغب كبير لمجلس الشيوخ في روما .

غير أن تلك المحاولة ما لبثت أن اصطدمت بتيار قوي معاكس ، مثله المتنفعون بأراضي الدولة العامة التي مسها الاصلاح ، وشرع في توزيعها على الفلاحين الصغار ، ولما كان ذلك التيار يستند الى نفوذ قوي في مجلس الشيوخ ، بحيث كان الكثيرون من أعضاء هذا المجلس قد شملهم الاصلاح ، وأرغمهم على التخلي عن الاراضي العامة Ager Publicus التي يشغلونها[15] ، تمكن هذا التيار من تحطيم مشروع تيبريوس كراكوس ، كما أودى بحياة هذا الزعيم عام 132 ق . م .

الا أن أخاه كايوس أحيا الفكرة الاصلاحية في أسلوب جديد ، وبحنكة أكثر لتفادي النتائج الوخيمة التي انتهت اليها خطة أخيه .

ولعل أسلوبه الجديد يتمثل في كون مشروعاته الاصلاحية تضمنت الاستفادة من أراضي الولايات الرومانية . وذلك بنقل الفلاحين الرومان والايطاليين الى تلك الاراضي وتنظيمهم في مستعمرات فلاحية على النمط اللاتيني .

وهنا ينبغي أن نستنتج بعض الملاحظات حول علاقة الاصلاح الزراعي الروماني بالحركة الاستعمارية . وهي أنه يمكن أن نصف الاجراءات التي توصل اليها الأخوان كراكوس على أنها تمثل إحدى الخطوات التقدمية في ميدان السياسة الداخلية الرومانية ، لكنها بالمقابل تعد تحولا واضحا نحو الاستيطان الروماني فيما وراء البحر ، في مجال السياسة الخارجية . أي أنه بقدر ما كانت تلك الاصلاحات مساهمة ايجابية في تاريخ الحركات الاصلاحية ، التي تناولت الطبقات المحرومة في المجتمع البشري ، لتقيم لها اعتبارا أمام الطبقة الثرية صاحبة الامتيازات الكبرى ، بقدر ما كانت تلك المحاولات الاصلاحية ، وخاصة منها محاولة كايوس كراكوس ، إسهاما واضحا في دفع الحركة الامبريالية

خطوات كبرى إلى الأمام على حساب الشعوب الخاضعة للسيطرة الرومانيه .

ولسوء حظ الدراسات الانسانية التي جعلت من التاريخ معينا لها . ومن مثل هذه الحركة الاصلاحية نماذج حية للمقارنة في مجال تطور الحركة الاجتماعية عبر التاريخ[17] ، أن هذه الدراسات أهملت الانعكاسات التي حدثت عن تلك المحاولات الاصلاحية ازاء الشعوب الواقعة تحت وطأة الاستعمار .. أي أن حركة الاستيطان التي كانت عبارة عن متنفس لروما ، أراح صدرها من الجو الاجتماعي والسياسي الخانق ، كانت على حساب الشعوب التي كانت أراضيها ميدانا لإقامة المستعمرات ، وتوطين الفائض من السكان الرومان .

وفي مجال الانجاز ، تمكن كايوس كراكوس من اعادة الاعتبار الى لجنة الاصلاح الزراعي التي جردها مجلس الشيوخ من اختصاصاتها عقب انتصاره على حركة تيبريوس كراكوس عام 132 ق . م وقد كان كايوس عضوا فعالا في تلك اللجنة الثلاثية منذ سنة 129 ق . م ، وعمل كايوس على استقطاب نواب العامة نحو مشاريعه الاصلاحية ، حتى أن النائب روبريوس Rubrius نحا نفس المنحى الذي كان يسير عليه كراكوس ، وتمكن من الحصول على موافقة مجلس الشيوخ باصدار قانون عرف باسمه Lex Rubria يخص إنشاء مستعمرات خارج الوطن الروماني ، من بينها مستعمرة جونو بقرطاجة Colonia iuninia Carthago وأوكل مجلس الشيوخ مهمة تنفيذ القانون لاعضاء اللجنة الثلاثية (عام 123 ق . م) ، وكانت تلك اللجنة تضم الى جانب كراكوس ، كلا من فلوفيوس فلاكوس Fluvius Flacus وبابيريوس كاربو C. Papirius carbo وبقدر ما كان فلاكوس مخلصا لمبدأ الاصلاح وانشاء المستعمرات ، بنفس الاخلاص والاندفاع الذي كان عليه زميله كايوس ، فان الزميل الثالث كاربو قد خذلهما في الأخير ، وانقلب ضدهما[18] .

أظهر مجلس الشيوخ ترحيبا بمشروع الاستيطان الذي اقترح باسم اللجنة الثلاثية ، وكان المجلس يأمل في أن يتخلص من أعضاء اللجنة لأنهم أصبحوا يشكلون مصدر شغب كبير في روما ، ذلك أن تنفيذ المشروع سيشغل اللجنة ، ويبعد بعض أعضائها عن الميدان السياسي .

تضمن مشروع الاستيطان إنشاء مستعمرتين في البر الايطالي ، إحداهما تدعى نبتونيا Neptunia بالقرب من مدينة تارانتوم Tarentum ، والثانية هي مستعمرة مينيرفيا Menervia قرب سكولاكيوم (عند اصبع القدم الايطالية)[19] . أما المستعمرة الاهم ، التي أثارت ضجة كبرى في روما ، فهي مستعمرة قرطاجة التي اقترح انشاؤها على مقربة من خرائب قرطاجة البونية . وعملا بمبدأ التناوب المتبع من طرف اعضاء اللجنة ، صحب فلاكوس حملة المعمرين البالغ عددهم ستة آلاف ، الى تراب قرطاجة ، وشرع يوزع عليهم الأراضي العمومية التابعة للدولة ، بمعدل خمسين هكتارا للمستفيد الواحد وهو ضعف المساحة التي يمكن أن يحصل عليها المنتفع من توزيع الاراضي في إيطاليا . ولعل مضاعفة الحصص كان القصد منها تشجيع الهجرة خارج ابطاليا .

وجاء دور كراكوس ليلتحق بزميله فلاكوس المنهمك في أعمال انشاء مستعمرة يونونيا . فأخذ على عاتقه ترتيب أمور المستوطنين في وطنهم الجديد ، وهو على عجلة من أمره ، حيث أنه كان يستعجل العودة الى روما قبل فوات فترة الانتخابات النيابية ، آملا في ترشيح نفسه من جديد للاحتفاظ بمنصب نائب العامة للمرة الثالثة .

وتذكر المصادر انه مكث في الولاية الافريقية مدة لا تتجاوز سبعين يوما . غير أن الامور في روما كانت تجري نحو مخرج آخر غير الذي ابتغاه كراكوس ، ذلك أن اعداءه في مجلس الشيوخ . ومن نواب العامة ، تمكنوا في غيابه من تحويل جمهور روما عنه . فسلبوه شعبيته لدى ذلك الجمهور ، حتى أن هذا الجمهور قد رغب عنه في الانتخابات .

ومن ثم فقد كراكوس منصبه في نيابة العامة عام 122 ق . م . وانحدرت قيمته ، وافلست مشاريعه الاصلاحية والاستعمارية آخر الأمر . ولما حاول الثورة ، دفع حياته ثمنا لتلك الحركة ، وكانت مذبحة عام 121 ق . م . خاتمة لتلك السلسلة من الهزائم السياسية .

وتجدر الاشارة الى أن أعداء كراكوس سلكوا إزاءه اسلوبين . كان لكل منهما خطره على زعيم الحركة الاستعمارية . تمثل أحد الاسلوبين في إثارة النائب الشعبي ليفيوس دروسوس Livius Drusus ضد كايوس كراكوس ، وأوعزوا له بتقديم مشروع لانشاء العديد من المستعمرات الأخرى لتوطين جمهور الفلاحين الرومان واللاتين . وكان الغرض من هذا المشروع ، الذي صادق عليه مجلس الشيوخ دون تردد ، إكساب دروسوس شعبية على حساب شعبية كراكوس لدى جمهور روما . فينصرف هذا الجمهور عن زعيمه الاول كراكوس . ومن ثم يخسر هذا الزعيم الجولة الانتخابية وتتحطم مشاريعه .

أما الاسلوب الثاني ، فيتجلى في تلك الاشاعات التي رددها مناهضو كراكوس حول مستعمرة يونونيا بقرطاجة . حيث أذاعوا بين الناس ان كراكوس أقام المستعمرة الرومانية على أنقاض المدينة البونية الملعونة من طرف الآلهة . وان في ذلك تجنيا على ارادة الآلهة التي غضبت وأرسلت العواصف لتحطم معالم المستعمرة . وان الذئاب قد فتكت بالعديد من المعمرين هناك ...

وليس مستبعدا على مجتمع ذلك العصر ان يصدق تلك الاشاعات ، ويرمي المثيرين لغضب الآلهة بالكفر والمروق . فضلا عن سحبه الثقة منهم .

وبهذه النتائج خرج التيار المناهض للاصلاح منتصرا مرة أخرى . وأصدر مجلس الشيوخ قانونا عام 121 ق . م . باسم أحد نواب العامة الذي انحاز الى المجلس . ويدعى ذلك النائب مينوسيوس Minusius . الغى القانون الجديد قانون روبريا القديم . والمتعلق بانشاء مستعمرات خارج ايطاليا[21] . كما تضمن قانون مينوسيوس Lex Minusius

ترخيصا للفلاحين الصغار المنتفعين بالاراضي العامة ببيع حصصهم من الارض متى شاؤوا . ومعنى ذلك أن كبار الملاكين قد عادوا من جديد ليبتلعوا الاراضي العامة الموزعة على صغار الفلاحين[22] ، سواء بواسطة البيع الاختياري ، أو عن طريق الضغط والتهديد ، أو الاغراء بالتخلي عن الأرض وامتهان حرف أخرى غير الفلاحة .

وبعد سنوات ، حددها جوليان بعشر ، ويتحفظ عبد اللطيف أحمد علي في تحديدها ، صدر قانون توريوس Lex Thoria بالغاء لجنة الاصلاح الزراعي ، وتحريم توزيع الاراضي العامة على الفلاحين الصغار[23] ، وبذلك أوصد مجلس الشيوخ الأبواب باحكام في وجه الحركة الاصلاحية .

قد يبدو لأول وهلة أن مشروع الاستيطان الروماني في بلاد المغرب تعرض هو الآخر للاخفاق النهائي ، تبعا لما حدث في روما من تحولات لصالح أعداء الحركة الاصلاحية ، غير أن الواقع يأتي مخالفا لتوقعات من هذا النوع ، ذلك أن المعمرين الذين حلوا بالولاية الافريقية تمسكوا بالارض التي وزعت عليهم ، رغم اساليب الضغط التي مارسها الملاك الكبار ضدهم ، ورجال الاعمال ، والسماسرة ، كي يبيعوا حصصهم ويعودوا الى ايطاليا .

ويذكر أغلب الكتاب ، أن أكثر من نصف أولئك المعمرين ظلوا باقليم قرطاجة الى عام 111 ق . م ، وهو العام الذي ظهرت فيه ترتيبات جديدة لوضعية الارض بالولاية الافريقية .

غير أنه لا يمكن التأكد من الصفة التي كان عليها الوضع الاجتماعي والسكني لاولئك المعمرين . لأن مستعمرة يونونيا التي كان مزمعا تشييدها لايوائهم قد توقف العمل بها عام 121 ق . م . ولا يعرف فيما إذا استوطن المعمرون احدى المدن أو القرى أو المزارع القرطاجية القديمة ، أم أنهم شيدوا لأنفسهم مساكن على قدر استطاعتهم

وينبغي الاعتراف بأنه يتعذر الخوض في شرح هذا الموضوع المتعلق بوضعية المعمرين عامة، عقب نسف مشروع مستعمرة يونونيا، لأن المصادر لا تتوفر حول ما حدث لهم بعدها، ومن ثم لا يمكن بناء استنتاجات قد تكون واهية ولا يقرها المنهج العلمي للبحث.

3 ـ حركة الاستيطان في عهد يوليوس قيصر

لئن كانت محاولة كراكوس قد حطمتها مواجهة أصحاب الامتيازات في الولاية، وخنقها الجو السياسي المضطرب في تلك الظروف، وساهم في تعطيلها تطرف ذلك النائب الشعبي الجريء، بتحديه للعرف الروماني، عندما حاول استعمال القوة ليحتفظ بنفوذه في المسرح السياسي، لئن كان ذلك هو مآل حملة الاستيطان الأولى في بلاد المغرب، فإن البذور التي غرسها كراكوس على أرض قرطاجة، أنعشها بعده يوليوس قيصر(24)، عندما تم له النصر على اعدائه في افريقيا، وأصبح سيد روما الوحيد، وبدون منازع.

والواقع أن اضطلاع قيصر بهذه المهمة يعد نجاحا كبيرا لحركة الاستيطان، وذلك بالنظر الى المنزلة السياسية الكبرى التي كان يتبوؤها قيصر، والى قوته في التأثير على مجلس الشيوخ، بجعله يقر ما يقترحه من مشاريع الاستيطان.

أي أن حركة الاستيطان في الولايات لم تعد مظهرا من مظاهر المطالب الشعبية في روما، ولم تبق مشاريع تقترح من طرف نواب العامة المغلوبين على أمرهم، بل صعدت الى مستوى أعلى، عندما تبناها سيد العالم، فاكتست بذلك طابعا رسميا، بعد ان كانت تتأرجح على مستوى المقترحات النيابية الهامشية، التي كانت تصطدم بذوي القوة والنفوذ في مجلس الشيوخ، وتتحطم.

وتجلت رغبة قيصر في إحياء سياسة الاستيطان، في ذلك الموقف الذي اتخذه بخصوص أرض مدينة قرطاجة الملعونة. لقد استوجبت

اللعنة الرومانية الا يشاد على أرضية المدينة البونية بناء. فلم يجرء أحد على التفكير في الخروج عن العرف الروماني، رغم الموقع الممتاز الذي يتصف به المكان. وحتى مستعمرة يونونيا تجنب فلاكيوس وكراكوس في وضعها الموقع القرطاجي. لكن قيصر لم يقم اعتبارا للعامل الديني امام متطلبات السياسة الجديدة التي نهض بها. فكان عليه أن يتحدى بهذه النظرة الجديدة شعور المواطن الروماني الساذج، ويتطاول على رأي خصومه حول السياسة الخارجية الرومانية. فأمر ببناء مدينة رومانية على تراب قرطاجة الملعون، معلنا بذلك عن شروعه في إحياء الحركة الاستعمارية المجمدة(25).

ومن جهة أخرى، فقد تجسمت سياسة قيصر الاستعمارية في خروجه عن طابع التحفظ الذي ميز سياسة مجلس الشيوخ تجاه استعمار افريقيا. ذلك ان قيصر أمر بانشاء خمس أو ست مستعمرات في إقليم قرطاجة، وعلى الحدود النوميدية ابتداء من عام 46 ق. م. هذا بالاضافة الى توسيع رقعة الولاية الرومانية التي أصبحت تدعى افريقيا القديمة Africa vetus على حساب مملكة نوميديا الملحقة بالممتلكات الرومانية والتي اطلق عليها قيصر اسم افريقيا الجديدة وقد شمل هذا التوسع الاراضي التي كانت تابعة للدولة قرطاجة سابقا، وابقى عليها الرومان تحت ايدي خلفاء ماسينيسا، ومن مدن تلك الاقاليم دقة Thugga وتيغنيكا Thignica ونملولي Numluli(26).

وبنظرة متأملة يمكن اعتبار هذا الاجراء التوسعي الذي اتخذه قيصر بمثابة حزام وقائي من المستعمرات، قصد حماية الولاية القديمة من المحاولات الوطنية التي كان يتوقعها قيصر، بعد قضائه على كيان نوميديا.

وفي مجال الانجازات الوقائية أيضا، يمكن إدماج إقطاعية أتباع سيتيوس Sittius الذين تحصلوا على شمال نوميديا، وكونوا منها اقطاعية غداة سقوط المملكة النوميدية ذلك أن تلك الاقطاعية تعد أضخم مشروع استعماري تم تنفيذه بنجاح على يد قيصر، وبايدي

المرتزقة السيتيان (نسبة الى زعيمهم سيتيوس) في اقليم سيرتا . وتظهر ضخامة المشروع في كون أولئك المرتزقة المسلحين لم يكتفوا بالاراضي التي وضعت تحت تصرفهم ، بل راحوا يوسعون حدود اقطاعيتهم على حساب المغاربة المجاورين . إذ استولوا على مدن سكيكدة Rusicad ، وميلة Milev ، وعلى القل Chullu ، أي على جميع المنطقة الواقعة شمال وشرقي سيرتا[28] ، بالاضافة الى استيلائهم على الأراضي الزراعية الواقعة جنوبها .

ورغم الطابع غير الرسمي لاقطاعية سيتيوس واتباعه ، من حيث خروجها عن نطاق المستعمرات الرومانية المحضة[29] ، فان دور تلك الاقطاعية قد تجاوز في خطورته الدور الذي قامت به المستعمرات الرومانية المتمتعة بالشخصية القانونية ، كتلك التي أنشأها قيصر في اقليم قرطاجة ، وخصصها لقدماء جنوده . ذلك أن اقطاعية سيتيوس اقيمت في اقليم جبلي صعب الانقياد للسلطة الرومانية ، فكان على المستوطنين السيتيان أن ينهضوا بمهمة اخضاع الاهالي في المنطقة المستعصية ، فضلا عن نشاطهم الاقتصادي والسياسي . ومن ثم كانت مهمتهم أكثر فعالية في إطار سياسة « الرومنة » .

وبخصوص حملة الاستيطان التي استأنفها قيصر . ذكر الكتاب القدماء أمثال سويطون Suetones . وديون كاسيوس Dion Cassius . ان حوالي ثمانين ألف جندي انتفعوا بتلك الحملة . ووزعت عليهم اراضي في الولايات الرومانية ، خارج ايطاليا . ويؤكد اولئك المؤرخون ان حظ ولايتي افريقيا وبلاد اليونان من جموع المستوطنين الجنود كان كبيرا[30] . ولعل ذلك كان بسبب الاهمية الفلاحية التي كانت تتمتع بها الولايتان ، فكان من سخاء قيصر أن يعبر لجنوده المخلصين عن استحقاقهم لعطائه الجزيل ، ومن ثم جاد عليهم بأرض طيبة معطاء .

غير أنه يصعب تحديد هوية المستعمرات التي تحمل اللقب اليولياني Julia (نسبة لمؤسسها) . بحيث أن عدة مستعمرات أنشئت في

عهدي قيصر وأوغسطس تندرج تحت الاسم السابق ، الامر الذي يتعذر معه تصنيف تلك المستعمرات تصنيفا زمنيا ، أي اعطاؤها ترتيبا كرونولوجيا ذلك أن لفظ يولي Juli الذي يدل بوضوح على لقب عائلة قيصر ، قد امتد استعماله لمدة طويلة بعد مقتل قيصر ، وأطلق على عدد من المستعمرات انشئت فيما بعد .

ومن المستعمرات التي أخذت اللقب اليولياني بولاية افريقيا وحدها ، ما لا يقل عن اثنتي عشرة مستعمرة ، منها :

- مستعمرة قرطاجة Colonia Julia Carthago
- مستعمرة زنفور " " Assuras
- مستعمرة الكاف " " Venira
- مستعمرة شمتو " " Simithu
- مستعمرة وذنة " " Uthina
- مستعمرة بنزرت " " Hipc Diarrhytus
- مستعمرة منزل القورشي " " Thub
- مستعمرة رادس[31] " " Maxula

وواضح جدا ، أن بعض هذه المستعمرات لم يكن من تأسيس قيصر ، بل يرجع الى عهد متأخر عنه ، فمستعمرة قرطاجة مثلا ، لم تشيد أيام قيصر ، بل يعود الفضل في انجازها الى اوكتافيوس[32] ، ومع ذلك احتفظت النقوش باللقب اليولياني لها ، كما احتفظت هذه النقوش بنفس اللقب لمستعمرات أخرى ، هي من وضع وانجاز أباطرة متأخرين عن قيصر .

4 ـ تجدد حركة الاستيطان في فجر الامبراطورية ببلاد المغرب :

اعترى سياسة الاستيطان توقف نسبي بعد مصرع قيصر ، واستمر طيلة السنوات التي فصلت حكمه عن حكم أوكتافيانوس أوغسطس Octavianus Augustus . أي الى عام 29 ق . م . وهو العام الذي أنهى فيه اوغسطس حسابه مع خصومه . ليستأنف بعد

ذلك سلسلة التعمير ، ويوقف حركة الاستيطان التي أصابها الجمود ، وانصرف عنها الاهتمام الى ما هو أكثر أهمية .

ويمكن الاستدلال على كون حركة الاستعمار قد توقف نشاطها خلال فترة الحرب الاهلية بين خلفاء قيصر ، أن المعمرين الذين منحهم قيصر أراضي في افريقيا اضطر عدد منهم لمغادرة الارض والعودة الى روما ، أو الانخراط في الجندية من جديد ، من ذلك أن الكثير من أولئك المعمرين التحقوا بصفوف اميليوس ليبيديوس Aemilius Lepidius والى افريقيا ، حيث عاد بهم الى جيش اوغسطس عام 36 ق . م[32] .

ويلوح أن هذا الاخير ، شعر بالخطر الذي يتهدد مستقبل الاستيطان في افريقيا من جراء انسحاب المعمرين منها ، فارسل ستاتيليوس طوروس Statilius Tourus عام 35 ق . م . في مهمة اساسية . هي المحافظة على المستعمرات . وخاصة منها مستعمرة قرطاجة . الى ان ينجلي الوضع المتأزم بينه وبين خصومه ، ويتفرغ لموضوع الاستيطان الذي يبدو أنه كان يتصدر مشاريعه المقبلة .

وعندما اطمأن اوكتافيانوس اغسطس على نفسه ، وبعد أن دانتْ له أمور الامبراطورية واحتاج الى تسريح الجيش ومكافأته ، أرسل من هذا الجيش ما لا يقل عن ثلاثة آلاف جندي دفعة واحدة الى بلاد المغرب كمستوطنين جدد ، لا يختلف الغرض من ارسالهم عن مثيله الذي استهدفه يوليوس قيصر من قبل ، وقد منحهم أراضي جديدة في عدة جهات من البلاد ، أهمها باقليم قرطاجة ، التي استيقظت مستعمرتها بعد هذا الاجراء واتجهت نحوها الانظار أكثر من غيرها من المستعمرات .

غير أن الساحل النوميدي والموريطاني ، لم ينج من هذه الحملة الاستعمارية الكبرى ، اذ نهض العديد من المستعمرات الرومانية على طول امتداد الشريط الساحلي من المحيط الاطلسي الى خليج السيرت .

وقد ذكر الاب ميناج J.P. Mesnage (نقلا عن كتاب قدماء) ما لا يقل عن خمسة وثلاثين مستعمرة ، أو بلدية كانت

على الساحل المذكور ، وتعود في معظمها الى عهد الامبراطور اوغسطس . هذا فضلا عن تلك المستعمرات التي انتشرت في شرقي نوميديا وفي تراب الولاية القديمة[33] .

ومن المستعمرات التي ورد ذكرها في كتاب بلين القديم (Pline l'Ancien) بموريطانيا الموسعة ما يلي :

- كارتناس Cartennas تنس .
- غنوجي Gunugi قوراية (قبة سيدي ابراهيم) .
- روزوكورو Rususccuru دلس .
- روزازوس Rusazus أزفون .
- صلداي Saldae بجاية .
- ايجيلجيلي Igilgili جيجل .
- توسكا Tucca (عند مصب الوادي الكبير) .
- زكابار Zucchabar مليانة .
- طوبوسويت[34] Tubusuptu تكلات (على وادي الصومام) .

ويذكر بلين ايضا ، أن اوغسطس ، قد عزز المستعمرة الأم (قرطاجة) بمجموعة مستعمرات أخرى أسسها بجوارها[34] .

أما سترابون Straban ، فيذكر بأن الاهتمام الاكبر لاوغسطس ، كان موجها لاحياء مستعمرة قرطاجة وتوسيعها ، ونتج عن هذا الاهتمام ، أن استعادت قرطاجة أهميتها التي فقدتها على العهد الروماني . حتى أنها أصبحت أهم مؤسسة سكنية بالمنطقة في نهاية الحكم الاوغسطي[35] .

ويبدو أن سياسة أوغسطس المركزة على العناية بانشاء مدينة رومانية على انقاض المدينة البونية ، مع الاحتفاظ بالاسم البوني ، فيها الشيء الكثير من بعد النظر ، ذلك أن السمعة التي كانت تتمتع بها قرطاجة البونية ، لم تكن تماثلها فيها سمعة أية مدينة أخرى ، سواء داخل الاقليم القرطاجي ، أو خارجه . ومن ثم فاحياء المدينة يعد اسهاما كبيرا في ميدان

سياسة « الرومنة » ، بحيث أن هذا العمل من شأنه أن يرجع للمدينة قوتها في الاشعاع الحضاري ، لكن منبع الاشعاع في هذه المرة يستقر في روما . أي أن قرطاجة الرومنة ، ستعكس حضارة الرومان ، وتساهم في تغلغل هذه الحضارة في الوسط المغربي ، الذي ظل معرضا لتأثير هذه المدينة منذ قرون عديدة خلت ، حينما كانت رائدة لحضارة شرقية سامية ، وقبل أن تأتي عليها نيران عام 146 ق . م ، وتدفن أنقاضها اللعنة الرومانية .

ولعل نظرة أوغسطس الصائبة ، تتجسد أيضا في سياسة إزاء المدن المغربية القديمة ، التي عفت عليها الحروب والنزاعات ، سواء تلك التي كانت في اقليم الولاية الرومانية ، أو التي كانت ضمن الممالك المغربية . لقد سلك حيال عدة مدن سياسة اللين والاستمالة ، قصد استقطاب سكان تلك المدن سلميا ، وجعلهم يركنون الى العهد الجديد ، ويقبلون الاندماج في حضارته الوافدة ، والمختلفة عن الحضارة البونية ـ المغربية التي ألفوها .

ومن أبرز الأمثلة على هذه الظاهرة في سياسة أوغسطس ، أنه قد استدرج سكان مدينة طنجة ، وألّبهم على ملكهم بوغود ، بمساعدة حليف الرومان بوكوس الثاني ، ثم كافأهم عن فعلتهم ، بأن منح مدينتهم حقوقا رومانية . أضف إلى ذلك أن كلا من مدينتي ليكسوس Lixus العريقة ، وشالا Sala ، قد لقيتا حسن المعاملة من طرف الرومان ، الى أن انتهى بهما الأمر الى الحصول على حقوق لاتينية ، ثم حقوق المستعمرة الرومانية أيام كلوديوس ، وذلك عندما كثر بهما العنصر الروماني ، وعمل فيهما تأثير الوافدين . ولم تشذ مدينة وليلي Volubilis ، العاصمة الثانية لمملكة موريطانيا عن هذه الوضعية الجديدة ، اذ أنه على الرغم من كونها كانت تمتاز بالعمق الجغرافي والأصالة المغربية ، فهي لم تمتنع عن المد الاستعماري الروماني ، نظرا لخصوبة التربة التي كانت تحيطها ، وحسن الموقع الذي كانت تتمتع به ، ولذلك ما أن ألغيت المملكة الموريطانية عام 40 م ، على يد الامبراطور كاليغولا Caligula ، حتى أعلنت وليلي مستعمرة فلاحية رومانية .

ولعل هذا التسرع في اعلان وليلي مستعمرة رومانية ، يعود الى نجاح سياسة غرس المستعمرات من قدماء الجنود الرومان في المنطقة المحيطة بتلك المدينة ، وذلك خلال عهدي يوبا الثاني وابنه بطليموس ، الذي يذكر أنه شارك في تدشين بعض تلك المستعمرات[36].

واقتضت السياسة الجديدة للامبراطورية الابقاء على العلاقات القديمة القائمة بين المجتمع المدني والمجتمع الريفي المغربيين ، ولم تتبن تلك السياسة مشاريع لتغيير تلك العلاقة ، تفاديا لردود الفعل العنيفة التي قد يقابل بها المجتمع الريفي تلك الاجراءات .

ومن الامثلة الواضحة على هذا الاتجاه السياسي الحذر ، تلك المواقف المرنة التي اتخذتها السلطة الرومانية تجاه القبائل المغربية في موريطانيا القيصرية ، حيث دعت الضرورة الى انتهاج أسلوب التودد والمداهنة ، ازاء شيوخ القبائل ، من أجل الحصول على ثقتهم وولائهم ، حتى يمكن الاطمئنان على المستعمرات الرومانية من خطر القبائل . واقتضت تلك السياسة ، أن تبقى الدولة الرومانية على أراضي تلك القبائل بين أيدي أصحابها ، رغم أن ممتلكات بطليموس وحاشيته ، قد أعلنت ملكا للشعب الروماني عقب ضم المملكة .

ويبدو أنه كان لسياسة اللين تلك ، أثر ما على علاقة بعض السكان المغاربة بالرومان ، من ذلك أن الثائر ايدمون Aedmon ، الذي رفع السلاح في وجه الرومان عقب مقتل بطليموس عام 40 م ، وراح يعبيء الطاقة الوطنية لدى القبائل المغربية ، ويستحث ما لديها من نخوة الثأر ، لم يكن لهذا الثائر نفس التأثير الذي أحدثه الثائر تاكفاريناس Tacfarinace من قبل . والذي استطاع أن ينشر التيار الوطني الى مداه البعيد في المجتمع الريفي المغربي ، ومن ثم يظهر ان بعض الصعوبات التي واجهت حركة ايدمون ، ترجع الى ما كان يربط شيوخ بعض القبائل بالسلطة الرومانية من مصالح . غير أنه ينبغي التنبيه الى ان حسن الجوار ، لم يكن العامل الوحيد الذي ساعد على تقصير عمر تلك

الحركة الثورية ، بل كانت هنالك عوامل أخرى تظافرت على التعجيل بخنق المقاومة ، منها وجود مستعمرات لقدماء الجنود الرومان ، ساعدت على عرقلة المد الثوري في الريف بالاضافة الى الحملة العسكرية الكبرى التي وجهها الامبراطور لسحق بذور المقاومة في موريطانيا ، وهي حملة تدل عظمتها على عزم الامبراطور ، وتصميمه على مد الحدود الرومانية الى أقدام الاطلس [37] .

ان سياسة انشاء المستعمرات باراضي الحلفاء ، أيام الامبراطور اوغسطس ، تدل على تحولات جديدة في السياسة الرومانية تجاه الشعوب . إذ بقدر ما ساعدت تلك السياسة على حل المشاكل الداخليه لروما ، بامتصاصها لأعداد كبيرة من الجنود المسرحين ، الذين كان يخشى الامبراطور خطرهم ، بقدر ما ساهمت في تمهيد أراضي الشعوب الحليفة لمصيرها الروماني المنتظر .

وبخصوص رد الفعل المغربي ، ازاء هذه السياسة ، وما صاحبها من تغييرات سياسية ، ذكر ديون كاسيوس Dion cassius ، أن البلاد قد عاشت وضعية سيئة في تلك الفترة ، وأن حالة من الاضطرابات عمت المنطقة منذ شروع أوغسطس في غرس المستعمرات على امتداد الشريط الساحلي لبلاد المغرب ، وقد بلغت تلك الاضطرابات أقصاها عندما أجريت تغييرات سياسية ، تم فيها تنصيب يوبا الثاني كملك حليف للامبراطورية الرومانية على عرش موريطانيا [38] ، وكانت حركة الاستيطان قد اشتدت بموريطانيا ، قصد تعزيز جانب يوبا ضد أعدائه الوطنيين ، الذين كانوا يرون فيه صورة للرجل الروماني ، لا المغربي ، نظرا لنشأته ، وثقافته ، وطبيعة سياسته ازاء شعبه وأسياده الرومان .

وجاء في أخبار كاسيوس ، أن قبائل الجيتول المتوضعين في الهضاب العليا على طول امتداد موريطانيا ونوميديا ، قد عبأوا أنفسهم لثورة عارمة ضد تلك التغييرات ، وأنهم فعلوا ذلك احتجاجا ، ليس فقط على ادارة يوبا للمملكة ، ولكن على الوجود الروماني كذلك [39] .

غير أن سياسة الاستيطان ، كانت أقوى فيما يبدو ، من أن تتراجع أمام تلك الضغوط التي كان يمارسها المغاربة الثائرون ، بدليل أن المستعمرات التي أنشئت ، قد اوصلت النشاط الذي أنيط بها في ظل حماية الوحدات العسكرية الرومانية ، وتحت غطاء من حملات التأديب والاخضاع ، التي كانت تجتاح البلاد كلما لاح للرومان خطر الثورة الوطنية .

كان أسلوب انشاء المستعمرات ، يستهدف تشكيل أحزمة من المستعمرات حول المدن الموريطانية الكبرى ، مثل يول Jul (قيصرية) وسيقا Siga ، ووليلي ، وطنجة ، وليكسوس Lixus ، وغيرها [40] . ولعل هذا الاسلوب يرمي الى عزل المنطقة الواقعة تحت التأثير الروماني عن المناطق الجبلية الثائرة ، خاصة وأن المعمرين كان أغلبهم من قدماء الجنود المسلحين .

ولم تأت سنة 40 م ، حتى كانت أهم الاراضي الزراعية الموريطانية ، قد وضعت تحت تصرف المعمرين الرومان [41] ، وبذلك حان الوقت لأن تلغى مملكة موريطانيا المصطنعة ، بعد أن ثبتت أوتاد « الرومنة » في الارياف والمدن الموريطانية [42] .

5 ـ هوامش الفصل الخامس

1 ـ Gsell (St.), H.A.A.N., T : 7, P. 57.
وكذلك، جوليان، ص . 150 .

2 ـ Mommsen (Th.), histoire romaine, T : 8, P. 162.

3 ـ Gsell (St.), H.A.A.N., T : 7, PP. 78-79.

4 ـ ول ديورانت، قصة الحضارة، مجلد 3، جزء 1 (قيصر والمسيح)، باب 3، فصل 1، ص . 85 ..
يشير ديورانت في هامشه الى كتاب مومسن المذكور أعلاه جزء 2، ص . 138، لكن هذه المعلومات لا تتوفر في الترجمة الفرنسية .

5 ـ Courtois (Ch.), Les Vandales et l'Afrique. P. 67.

6 ـ انظر الفصل الثاني من هذا البحث، وهو خاص بسياسة التوسع الروماني .

7 ـ Camps (H.F.), L'olivier et l'huile dans l'Af. romaine, P. 17.
تقول عن فرجيل :
"Emmène avec lui son chien, ses armes, sa maison, son troupeau, et s'enforce dans solitude qu'il parcourt pendant des mois entiers".

8 ـ جوليان، المصدر السابق، ص . 2176 .

9 ـ Albertini (E.), Marçais (E.), Pregent (E.), A.N.F.H., P. 60.

10 ـ هشام الصفدي، تاريخ الرومان، جزء 1، ص . 221 وما بعدها .

11 ـ نفس المصدر، ص . 104 .

12 ـ عبد اللطيف أحمد علي، التاريخ الروماني (عصر الثورة) الفصل الأول . هنا وهناك .

13 ـ نفس المصدر، ص . 2، حاشية (1) .

14 ـ هشام الصفدي، نفس المصدر السابق، ص . 215 .

15 ـ عبد اللطيف، نفس المصدر السابق، ص . 2 ـ 6 .

16 ـ هشام الصفدي، نفس المصدر السابق، ص . 251 وما بعدها .

17 ـ هناك اهتمام كبير أولاه Luigi Pareti محرر الكتاب الثاني من تاريخ الانسانية Histoire de l'humanité لهذه الحركة . انظر : ص . 159 ـ 160 من هذا الكتاب، وكذلك ص . 432 ـ 434 .

18 ـ عبد اللطيف أحمد علي، نفس المصدر السابق، ص . 25 .

19 ـ جوليان، نفس المصدر السابق، ص . 152، وكذلك عبد اللطيف أحمد علي، نفس المصدر السابق، ص . 32 .

20 ـ جوليان، نفس المصدر، ص . 153، وكذلك عبد اللطيف أحمد علي، نفس المصدر، ص . 34.

21 ـ جوليان، نفس المصدر، ص . 153، وكذلك عبد اللطيف، ص . 38 (الحاشية) .

22 ـ عبد اللطيف، نفس المصدر، ص . 38 (الحاشية) .

23 ـ Gascou (J.), P.M.E.R.A.P. P. 21.

24 ـ Gascou (J.), P.M.E.R.A.P., PP. 19-20.

25 ـ Gsell (St.), H.A.A.N., T : 8, P. 168.
وكذلك : Mesnage (P.J.), R.A.N., P. 38.

26 ـ (نفس المصدر السابق) Gascou (J.), P. 21.

27 ـ Mesnage (P.J.), R.A.N., P. 37 et P. 101.

28 ـ Gsell (St.), H.A.A.N., T: 8, P. 161.
وكذلك : Mesnage (P.J.), R.A.N., P. 102.

29 ـ Mesnage (P.J.), R.A.N., P. 38.

30 ـ Mesnage (P.J.), (عن النقوش اللاتينية) R.A.N., P. 41.

31 ـ (نفس المصدر السابق) Gascou (J.), يلاحظ كاسكو، ان اهتمام قيصر كان منصبا على الولاية القديمة في عملية الاستيطان، وكذلك لم يحاول أن يوسع مجال تلك العملية الى خارج الولاية القديمة، كما أن مجهوده كان مركزا على فكرة ربط افريقيا المنتجة للقمح بروما . ص . 22 .

32 ـ Mesnage (P.J.), (عن النقوش اللاتينية) R.A.N., P. 39.

33 ـ Mesnage (P.J.), R.A.N., P. 46.

34 ـ Pline l'ancien, hist. Nat., T: 5, PP. 17 et 23.
وكذلك : Carcopino (J.), le Maroc antique, P. 30.

35 ـ Toutain (J.), C.R.T., P. 313.

36 ـ Carcopino (J.), le Maroc antique, P. 171.

37 ـ Pline l'ancien, hist. Nat., T : 5, P. 11.

38 ـ Cagnat (R.), A.R.A.O.M.A.N., PP. 4-9.
في هذا الكتاب، عرض قيم للحركات الوطنية التي اندلعت لمقاومة التوسع الروماني في المنطقة المغربية .

39 ـ نفس المصدر، ص . 4 ـ 9 .

40 ـ Ponsiche (J.), R.A.T.R., P. 224.

41 ـ Amin (A.), Brignon (J.), histoire du MaiJç, PP. 33-34.

42 ـ Albertini (E.), Marçais (G.), Pregent (E.), A.N.F.H., P. 60.

الخاتمة

أود أن ألفت النظر مقدما ، الى أنه يمكن للقاريء أن يستنتج أفكارا ، قد تتفق ، أو تختلف مع التي سأستخلصها في هذه العناصر . ذلك أن رؤيتي للحوادث التاريخية التي شملها البحث ، وتقييمي لنتائجها ، أمر يجعلني أجمل خاتمة هذا البحث في النتائج التالية :

1 ـ أهّل الموقع الجغرافي بلاد المغرب لان تكون منطقة تجاذب سياسي وحضاري بين القوى الدولية لعالم البحر المتوسط ، وأن تكون مجالا لتوسعاتها الاستعمارية فمنذ اكتشف الفنيقيون هذه البلاد ، وتعرفوا على مميزاتها الاستراتيجية والتجارية ، استغلوا هذه المميزات في توسيع نشاطاتهم التجارية عبر البحر المتوسط ، ثم ما لبثت منطقة شمال افريقيا أن أصبحت مركزا هاما للاستيطان الفنيقي ، الذي كون قوة سياسية عملت على مد مجال نفوذها السياسي والاقتصادي داخل المنطقة وخارجها . وأصبحت نواة تلك القوة (قرطاجة) مركز اشعاع حضاري ، ساهم في انعاش البلاد ، ودفع تطورها ، ومدها بروافد حضارية شرقية ظلت تغذيها قرونا عديدة .

واعتبارا من منتصف القرن الثالث قبل الميلاد ، بدأ الرومان يهتمون بالمنطقة المغربية . وقد رأينا كيف تحمل المغاربة جانبا هاما من أعباء الصراع الروماني / القرطاجي . اذ أن ذلك الصراع الذي نشب في صقلية أولا ، ما لبث أن انتقل الى بلاد المغرب نفسها ، حيث دارت معاركه الفاصلة على أرضها ، ومن ثم غدت هذه الارض بعد ذلك ، ميدانا للتوسع الاستعماري الروماني ، بما صحبه من مد حضاري جديد ، كاد يغطي الارضية الحضارية السابقة .

2 ـ يبدو أنه ليس من المبالغة اذا استنتجت أن الضغط الاجنبي ، الذي تعرضت له بلاد المغرب ، كان أحد العوامل الهامة التي عاقت

المغاربة عن تحقيق الوئام والتعاون فيما بينهم . لأن المصالح الاجنبية كانت تغذي المتناقضات ، وتنمي النزاع بين الانظمة السياسية المغربية ، وهو ما حال دون قيام وحدة سياسية قوية ، قد تشكل خطرا على النفوذ والمصالح الاجنبية .

ورغم صعوبة التأكيد على وجود هذه العوامل السلبية في الفترة السابقة لمجيء الرومان فان دورها كان ملحوظا خلال العهد الروماني . حيث سجل تاريخ المغرب ، آنذاك ، ثنائية متناقضة بين شرقي البلاد (نوميديا) وغربها (موريطانيا) ، دامت ما يقرب قرنا وربعا من الزمن ، أي طيلة مراحل الاحتلال الروماني لبلاد المغرب ، وبالتحديد منذ سقوط الدولة القرطاجية ، الى أن وضع الرومان موريطانيا الموسعة في يد يوبا الثاني ليحكمها نيابة عنهم .

وهكذا ، فان تعليل ذلك الاخفاق الذي اعترض المغاربة في تحقيق الوحدة الوطنية ، بانه نتيجة عوامل جغرافية ، أمر يصعب الاخذ به . لأن العوائق ، كما اتضح لنا من خلال هذه الدراسة ، ليست جغرافية بالدرجة الاولى ، وانما هي سياسية وتاريخية ، تجلت في تلك السلسلة من السيطرة الاجنبية ، التي تسارعت وتتابعت على بلاد المغرب ، فلم تتح الفرص للانسان المغربي لأن يهيء الظروف للوحدة الوطنية الشاملة ، ويستقل بكيانه السياسي والحضاري .

3 ـ يمكن تلخيص جهود الرومان الرامية الى « رومنة » بلاد المغرب ، في أنها اعتمدت على القوة العسكرية حينا ، وعلى الدهاء السياسي أحيانا أخرى ، مرفقة ذلك بجهود اقتصادية واستعمارية ، تمثلت في النشاطات التجارية ، وفي حركة الاستيطان الواسعة . وكان من أغراضها البارزة : تدعيم الأمن الروماني في البلاد ، واستغلال الاراضي الزراعية فيها ، والاستفادة من ثرواتها ، والعمل على ادماج السكان المغاربة في الحياة الاقتصادية والاجتماعية تدريجيا أي « رومنتهم » .

غير أن سياسة الادماج هذه ، كانت تقوم على مبدأ التقشف في منح الحقوق المدنية الرومانية للمغاربة ، بحيث لم تفتح أبواب الاندماج الا في وجه الطبقة الارستقراطية المغربية ، فنتج عن ذلك بقاء عامة الناس خارج الاجراءات الرومانية المتخذة في نطاق « الرومنة » . ومن ثم ظل جل المواطنين (الاهالي) في وضعية اقتصادية واجتماعية لا تتجاوز حالة كونهم عمالا أجراء في المستعمرات الزراعية التابعة للاقطاعيين ، أو جنودا مساعدين في المدن العسكرية ، أو فلاحين صغارا يرزحون تحت عبء الضرائب ، أو رعاة يجوبون السهوب والصحراء بقطعانهم بحثا عن العيش الشظف .

وبالمقابل ، كان الوافدون الرومان ، من مستوطنين ، وتجار واداريين ، يشيدون لانفسهم اركان حضارة رومانية في بلاد المغرب ، ضاهوا بها الحضارة الرومانية في موطنها الاصلي بايطاليا . وقد هيأت ثروة البلاد لتلك الحضارة فرص النمو والازدهار . اذ أن الرومان استحوذوا على أجود الاراضي الفلاحية ، وأنشأوا فيها أنظمة زراعية عصرية ، وسخروا لها موارد الماء ، والطاقة الحيوانية والبشرية . كما أحكموا استغلال الثروات المعدنية والبحرية ونهضوا بالاستثمارات التجارية الكبرى ، فتدفقت عليهم الاموال من مواردها المتعددة ، ووفرت لهم المؤسسة العسكرية شروط الامن الضرورية ، كي يعملوا في ظروف أفضل ، وبرغبة أشد في الاحتفاظ بمكتسباتهم ، والتمتع بمنجزاتهم الحضارية ، وهي منجزات تشهد بقاياها الأثرية على أنها كانت عظيمة .

بهذه الملامح العامة لسياسة « الرومنة » في مراحلها الاولى ، يمكن استخلاص النتيجة التالية : وهي أن أسس الحكم التي وضعها الرومان في بلاد المغرب ، والاساليب التي درجوا عليها في معاملاتهم للانسان المغربي ، والانظمة الاقتصادية والاجتماعية التي اعتمدوها في استغلالهم لثروات البلاد ، وتحويل المجتمع المغربي ، قد رسمت ـ كلها مجتمعة ـ مستقبل المنطقة ، وحددت مصير المواطنين المغاربة ، من الذين شملتهم

السيطرة الرومانية ، لفترة تزيد عن الاربعة قرون ، عاشتها بلاد المغرب جزءا من العالم الروماني المترامي الأطراف .

الا أنه يمكن القول : بأن الدعائم التي وضعها الرومان لسياستهم في « رومنة » الشعب ، لم تتمكن من تقوية جذورها في بلاد المغرب ، لأنها اصطدمت بمقاومة شديدة ، تجلى جانب منها في صورة ثورات مسلحة ولوحظ الجانب الثاني في الامتناع عن الاندماج في المجتمع الروماني الدخيل ، ورفض الانحلال في حضارة شيدها غزاة احتلوا البلاد واستوطنوها بقوة السلاح . وقد عبرت هذه المقاومة عن إرادة الانسان المغربي في التحرر من السيطرة الاجنبية ، وعن تمسكه بخصائصه الذاتية والحضارية .

المراجع الأساسية

أ ـ الكتب :

1 ـ أرنولد توينبي : تاريخ الحضارة الهلينية . ترجمة رمزي عبده جرجس . سلسلة الالف كتاب ، القاهرة ، 1963 .

2 ـ أندري ايمار ، وغيره : تاريخ الحضارات العام . المجلد الثاني (روما وامبراطوريتها) ترجمة فريد داغر ، بيروت ، 1964 .

3 ـ شارل اندري جوليان : تاريخ افريقيا الشمالية . الجزء الاول . ترجمة مزالي . تونس ، 1969 .

4 ـ عبد اللطيف أحمد علي : التاريخ الروماني (عصر الثورة) . القاهرة 1967 .

5 ـ هشام الصفدي : تاريخ الرومان . الجزء الاول . بيروت ، 1967 .

6 ـ وليام لانجر : موسوعة تاريخ العالم . الجزء الاول . ترجمة محمد . م . زيادة . مكتبة النهضة المصرية ، 1952 .

7 ـ ويل ديورانت : قصة الحضارة . المجلد الثالث . ترجمة بدران . طبعة 2 . القاهرة ، 1964 .

8) - Albertini (EU.)
L'Afrique Romaine, Alger, 1938.

9) - Albertini (EU.), Marçais (G.) Pregenet (E.),
L'Afrique du Nord française dans l'histoire. Alger 1955.

10) - Amin Abdelaziz, Brignon (J.),
Histoire du Maroc, Casablanca. 1968.

11) - Baradez (J.)
Fossatum Africae : Paris. 1949.

12) - Bordet (M.)
Précis de l'histoire romaine, Paris, 1969.

13) - Camps (G.)
Massinissa ou début de l'histoire, Alger, 1961.

14) - Camps (H-F)
L'Olivier et l'Huile dans l'Afrique Romaine, Alger 1953.

15) - Cagnat (R.),
L'Armée romaine d'Afrique et l'occupation militaire de l'Afrique du Nord. 2 vol. 2ème Ed. Paris, 1912.

16) - CarcoPico (J.)
Le Maroc Antique. Paris, 1948.

17) - Courtois (C.H.)
Les Vandales et l'Afrique.

18) - Diodore de Sicile.
Bibliothéque Historique, Trad. par Hoefev (F.), 3ème Ed. Hach, Paris, 1843.

19) - Despois (J.)
L'Afrique Blanche. 3ème Ed.; P.U.F., Paris 1964.

20) - Gsell (S.)
Histoire Ancienne de l'Afrique du Nord, 8 Tomes Paris 1928

21) - Gsell (S.)
Atlas archéologique de l'Algérie. 2 vol. Alger, 1911.

22) - Gsell (S.)
Hérodote, textes relatifs à l'histoire de l'Afrique du Nord. Alger, 1955.

23) - Gafiot (F)
Dictionnaire latin français, Hachette. Paris 1934.

24) - Gascou (J.)
La politique municipale de l'Empire Romain en Afrique proconsulaire, Pâris, 1973

25) - Harmand (L.),
L'occident romain, Paris 1970.

26) - Louigi (P.),
Histoire de l'humanité, Tome 2. Paris 1967.

27) - Mesnage (P-J.),
La Romanisation de l'Afrique du Nord, Paris, 1913.

28) - Mommsen (T.)
Histoire Romaine. 8 vol. Trad. par C.A. Alexandre. Paris, 1863.

29) - Mazard (J.),
Corpus numurum numidiae mauretaniaeque, Paris, 1955.

30) - Pallu de lesserte
Fastes des province africaine, 2 Tomes. Paris, 1901.

31) - Petit (P.),
Précis de l'histoire Ancienne. P.U.F. Paris, 1967.

32) - Peit (P.)
La paix Romaine, P.U.F. Paris, 1967.

33) - Piganiole (A.),
La conquête Romaine, 5ème Ed. P.U.F. Paris, 1967.

34) - Picard (G.CH),
La civilisation de l'Afrique Romaine. Paris, 1960.

35) - Pline L'Ancien.
Histoire naturelle, Trad. par Beaujeu (J.) par, 1950.

36) - Ponsich (M.),
Recherche archéologique à tinger et dans ses régions, Paris, 1970.

37) - Salluste,
Bellum Jugurthinum, Paris, 1963.

38) - Tite-live.
Histoire Romaine Paris, 1963.

39) - Toutain (J.),
Les Cités Romaine de la Tunisie Paris, 1896.

40) - Walter (G.),
César. Paris (Marobout Université) Paris, 1964.

ب ـ المقــالات :

1 ـ هشام الصفدي : نحو وعي أفضل لتاريخ الجزائر ، مجلة الأصالة ، العدد الخاص بالذكرى العاشرة للاستقلال ، 1972

2) - Schelten (A),
L'Arpantage Romaine en Tunisie,
Bulletin archéologique, tome 20, Paris, 1902.

3) - Despois (J.),
La Bordure saharienne de l'Algérie orientale. Revue africaine, tome 86 - 67. 1942 - 43.

المـــراجـع العـــامـــة

أ ـ الكتــب :

1 ـ أحمد المكناسي : خريطة المغرب الاركيولوجية ، تطوان ، 1961 .

2 ـ أحمد المكناسي : مدينة ليكسوس الاثرية ، تطوان ، 1961 .

3 ـ أحمد صفر : مدينة المغرب العربي في التاريخ ، دار بوسلامة ، تونس ، 1956 .

4 ـ أمين سلامة : التاريخ الروماني ، دار الفكر العربي ، بيروت ، 1959 .

5 ـ روستوفتزف : تاريخ الامبراطورية الرومانية الاجتماعي والاقتصادي . الجزء الاول (المتن) ، ترجمة زكي علي مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، 1957 .

6 ـ عثمان الكعاك : البربر ، تونس ، 1956 .

7 ـ منجي النفير : الحضارة التونسية من خلال الفسيفساء ـ تونس ـ بدون تاريخ .

8 ـ نور الدين حاطوم ، وغيره : المدخل الى التاريخ ، مطبعة الانشاء ، دمشق ، 1960 .

) - Carcopino (J.).
Les étapes de l'impérialisme romain, Paris, 1961.

10) - Carcopino (J.),
Le Maroc Antique, Paris, 1948.

11) - Carcopino (J.),
L'Algérie et son passé, Paris, 1951.

12) - Carcopino (J.),
L'inscription d'Ain El-Djamala, Rome, 1906.

13) - Cagnat (R.),
A travers le monde romain, 2ème Ed. Paris, 1912.

14) - Fantar (Md.),
Carthage, Tunis, 1970.

15) - Ferrou (G.),
La Tunisie Antique, Tunis , 1968.

16) - Gagé (J.),
Les Classes Sociales dans l'Empire Romain Paris, 1964.

17) - Goustave (B.),
Histoire de la conquête et de l'Administration Romaine dans le nord de l'Afrique, Paris, 1878.

18) - Gautier (E.F.),
Le passé de l'Afrique du nord, Paris, 1952.

19) - Gsell (S.),
Chronique archéologique africaine. Alger, 1982.

20) - Guiroud (P.),
Les assemblées provinciales dans l'Empire Romain Paris, 1887.

21) - Homo (L.),
Nouvelle histoire romaine, 38ème Ed. Paris, 1925.

22) - Homo (L.),
L'Italie primative et les débuts de l'Empirialisme romain 2ème Ed. Paris, 1939.

23) - Homo (L.),
L'Empire Romain Paris, 1925.

24) - Leglay (M.),
Saturne Africaine, Paris, 1966.

25) - Leschi (L.),
Djemila cuicul de numidie, Alger, 1939

26) - Leschi (L.),
Algérie Antique, Arts et Matières Graphiques Paris, 1952.

27) - Picard (CH.G.),
Textes et documents relatifs à la vie économique et Sociale dans l'Empire Romain Paris, 1969

28) - Salama (P.),
Les voies Romaines de l'Afrique du nord, Paris, 1951.

29) - Saumagne (CH.),
La Numidie et Rome P.U.F. Paris, 1967.

30) - Saumagne (CH.),
La photographie aérienne, Paris, 1952.

31) - Tacite.
Annale, Trad. d'après Burnout par Bornecque Paris, 1965.

32) - Terrasse (H.),
Histoire du Maroc, tome 1, Casablanca, 1949.

33) - Terrasse (H.),
Les villes empiriale du Maroc, Casablanca, 1937.

34) - Tissot (CH.),
Geographie comparée de la province romaine d'Afrique, 2 Tomes, Paris, 1884.

ب ـ المقـــالات

1) - Ballu (A.), *Ruines de Djamila (antique cuicul).*
Revue Africaine, tome 62 (1921).

2) - Bernard (J.), *Mosaique inédites de Cherchell.*
Mélanges de l'Ecole française de Rome, Tome 26 (Paris, 1906).

3) - Bouchenaki (M) *Relation entre le Royaume de Numidie et la Republique Romaine de 1er siècle avant J.C.*
Revue d'histoire et de civilisation du Maghreb — (R.H.C.M.). Faculté des Lettres. Tome 6-7 (1969).

4) - Camps (G.), *Origines du Royaume Massyle.*
R.H.C.M Faculté des Lettres. Tome 3 (1967).

5) - Desnages (J.), *Les territoires Gétules de Juba II.*
Revue des Etudes Anciennes. Tome 66 (1964).

6) - Février (P.A.), *Notes sur le développement urbaine en Afrique du nord.*
Cahiers Archéologiques. Tome 14 (1964).

7) - Février (P.A.), *Aux origines de l'occupation Romaine dans les hautes plaines de Sétif.*
Cahiers de Tunisie (Tunis, 1967).

8) - Février (P.A.), *La Recherche archéologique en Algérie et l'histoire ancienne du Maghreb.*
R.H.C.M., Faculté des Lettres. Tome 8 (1968).

9) - Nakli (A.), *Essai de toponymie maghrébine.*
R.H.C.M. Faculté des Lettres Tome 8 (1970).

10) - Saumagne (CH) *Sur la législation relative aux terres incultes de l'Afrique Romaine.*
Revue tunisienne, (1922).

الفهـــارس

1 ـ فهرس الاعـلام :

أ

ب

2 ـ فهرس الاماكن :

3 ـ فهرس القبائل والشعوب :

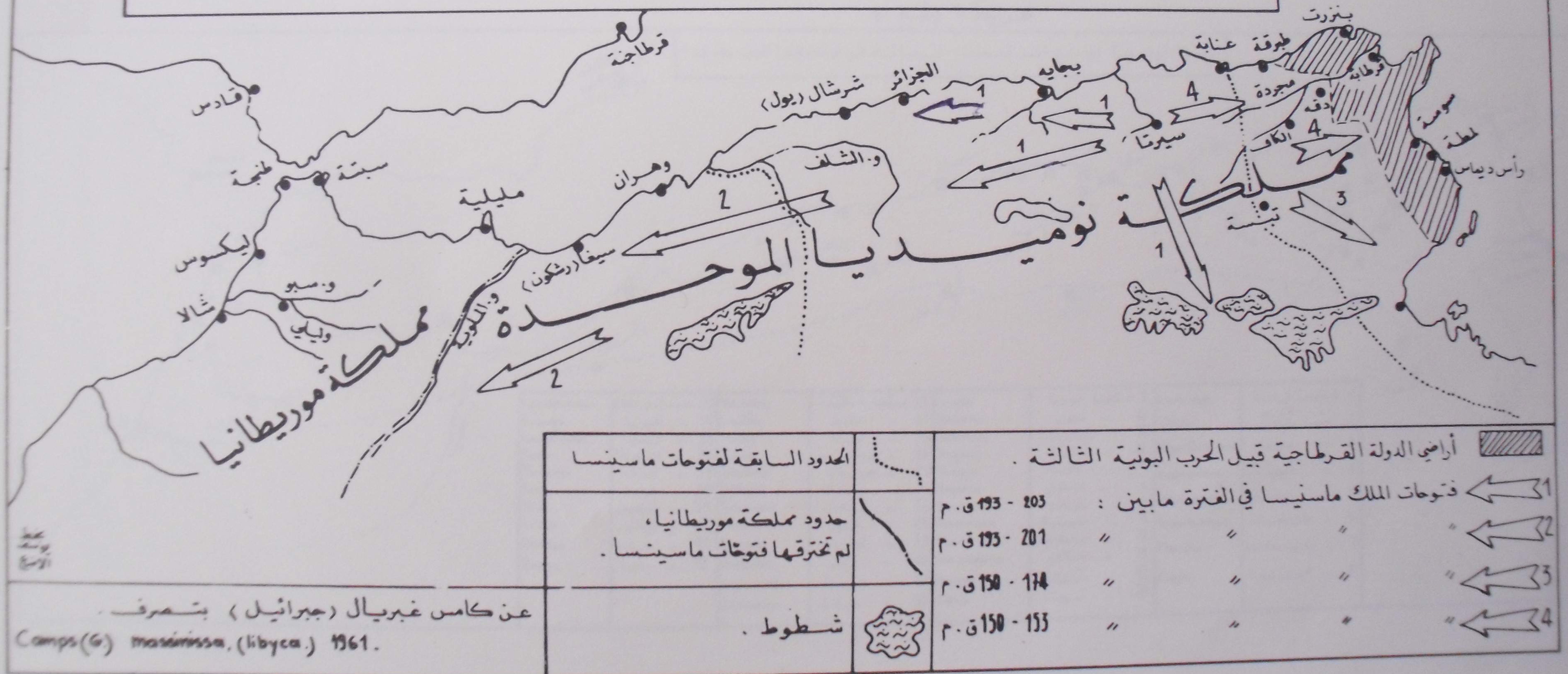
4 ـ فهرس بعض الاسماء والحوادث :



خريطة رقم 1

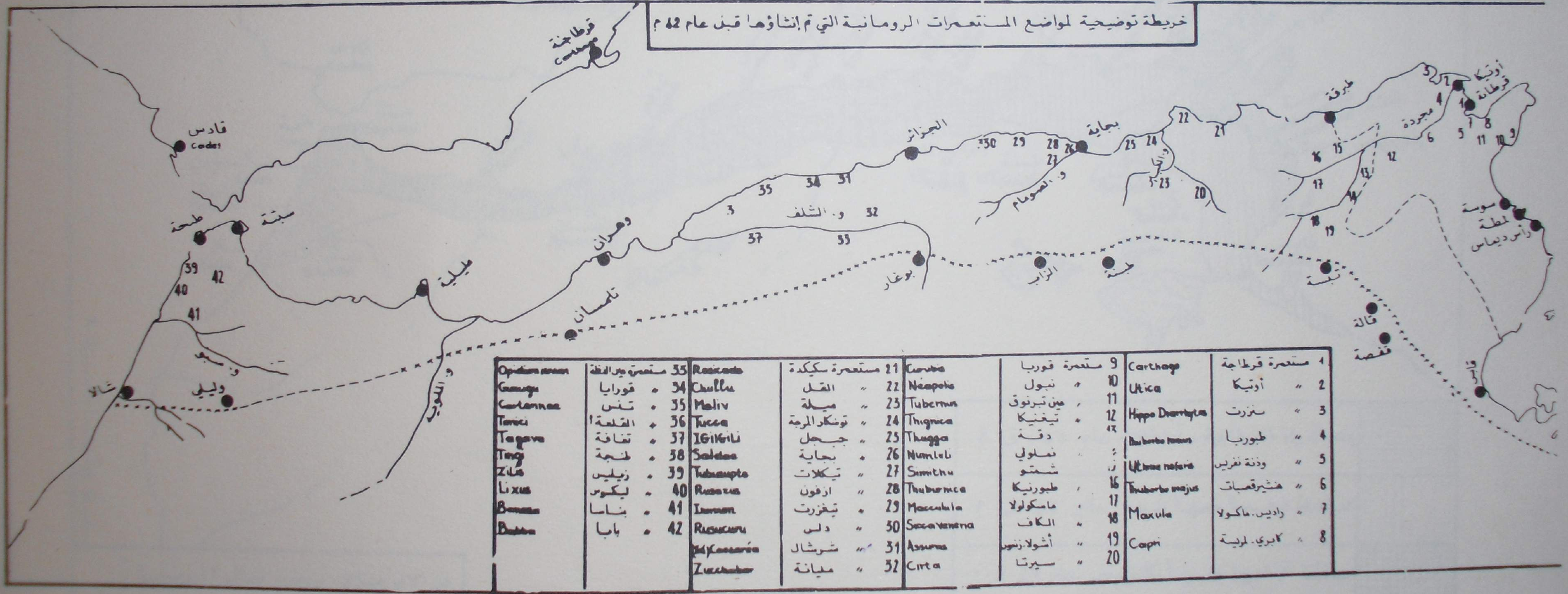
الدولة القرطاجية والممالك الوطنية قبل الحرب البونية الثانية (218 ق.م)

خريطة رقم 2



خريطة سياسية لبلاد المغرب في الفترة مابين الحربين البونيتين الثانية والثالثة (202 - 149 ق.م)
قرطاجنة
قادس
طنجة
سبتة
ليكسوس
شالا
و. سبو
وليلي
مليلية
وهران
سيغا (رشقون)
شرشال (يول)
الجزائر
بجاية
عنابة
طبرقة
بنزرت
مجودة
سيرتا
دقة
الكاف
تبسة
قرطاجة
سوسة
لمطة
رأس ديماس
و. الشلف
و. ملوية
مملكة نوميديا الموحدة
مملكة موريطانيا
أراضي الدولة القرطاجية قبيل الحرب البونية الثالثة .
فتوحات الملك ماسينيسا في الفترة مابين : 203 - 193 ق.م
201 - 193 ق.م
174 - 150 ق.م
153 - 150 ق.م
الحدود السابقة لفتوحات ماسينسا
حدود مملكة موريطانيا، لم تخترقها فتوحات ماسينسا .
شطوط .
عن كامس غبريال (جبرائيل) بتصرف .
Camps (G) massinissa, (libyca.) 1961.

خريطة رقم 4



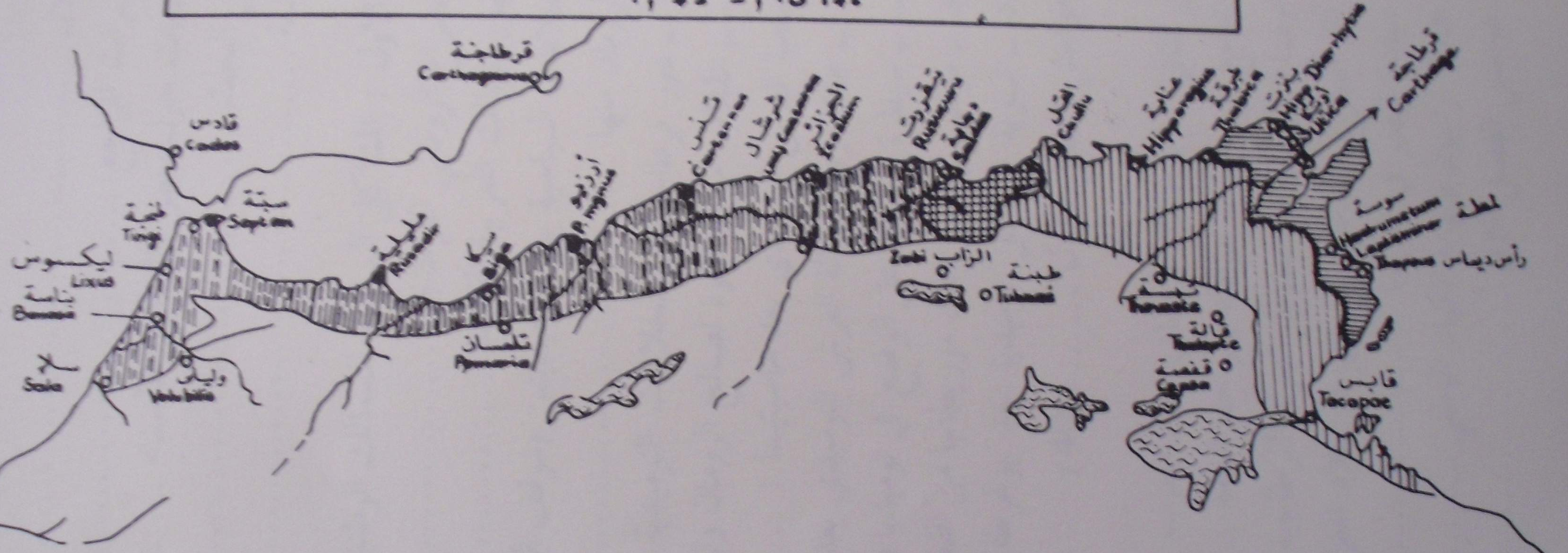
خريطة توضيحية لمواضع المستعمرات الرومانية التي تم إنشاؤها قبل عام 42 م

1	مستعمرة قرطاجة	Carthago
2	" أوتيكا	Utica
3	" سوزرت	Hippo Diarrhytus
4	" طبوربا	Thuburbo minus
5	" وذنة نفريس	Uthina nefera
6	" هنشيرقصبات	Thuburbo majus
7	" راديس. ماكسولا	Maxula
8	" كابري. لمرسية	Capri
9	مستعمرة قوربا	Curubis
10	" نبول	Neapolis
11	" عين تبرنوق	Tubernuc
12	" تيغنيكا	Thignica
13	" دقة	Thugga
[illegible]	" نملولي	Numluli
[illegible]	" شمتو	Simithu
16	" طبورنيكا	Thuburnica
17	" ماسكولولا	Masculula
18	" الكاف	Sicca Veneria
19	" أشولا. زنفور	Assuras
20	" سيرتا	Cirta
21	مستعمرة سكيكدة	Rusicade
22	" القل	Chullu
23	" ميلة	Milev
24	" تونكار المرجة	Tucca
25	" جيجل	IGILGILI
26	" بجاية	Saldae
27	" تيكلات	Tubusuptu
28	" ازفون	Rusazus
29	" تيغزرت	Iomnium
30	" دلس	Rusucuru
31	" شرشال	Iol Caesarea
32	" مليانة	Zucchabar
33	مستعمرة عين الدفلة	Opidum novum
34	" قورايا	Gunugu
35	" تنس	Cartennae
36	" القلعة؟	Tenici
37	" تقافة	Tagava
38	" طنجة	Tingi
39	" زيليس	Zilis
40	" ليكوس	Lixus
41	" بناسا	Banasa
42	" بابا	Babba

خريطة رقم 3

خريطة توضيحية تمثل مراحل الاحتلال الروماني لبلاد المغرب.

146 ق.م - 42 م.



إقليم الدولة القرطاجية ، تم احتلاله عام 146 ق.م.	
مملكة نوميديا ضمها قيصر عام 46 ق.م.	
منطقة تم ضمها على يد أوكتافيوس عام 29 ق.م.	
مملكة موريطانيا الموسعة ، تم ضمها عام 42 ق.م.	

عن الاب ميناج ، رومنة شمال افريقيا .

P.J. Mesnage . Romanisation De L'Afrique Du Nord PARIS 1913

عمل يوسف الأخضر .

فهـرس البحـث

طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية
وحدة الرغاية — 1985
الطبعة الثانية